كلية الآداب

قسم التاريخ

حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل

(١١٠١ – ١١٠٥ م / ٤٩٥ – ٤٩٩ هـ)

اعداد

الدكتور اسامة زكى زيد

كلية التربية – جامعة طنطا

مطبعه جامعه الاسكندريه

١٩٨١

اكتنفت العصور الوسطى التى اقتطعت من تاريخ البشرية عشرة قرون من الزمان ، كثيراً من الظواهر والحركات التى تركت أبلغ الأثر على مجريات الأحداث فى كثير من أنحاء العالمين الاسلامى والمسيحى . ولعل من أهم هذه الحركات ما يطلق عليه المؤرخين اسم « عصر التوسع الصليبى » الذى شغل قرابة قرنين من الزمان ، وعلى وجه التحديد الفترة الممتدة من أواخر القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد (من أواخر القرن الخامس حتى أواخر القرن السابع من الهجرة) .

ولاشك أن هذه الحروب بما تضمنته من أحداث متشابكة ومتداخلة فيما بينها ، أنما تمثل فصلا هاماً من فصول العلاقات بين الشرق والغرب فكان نجاح الصليبيين واستيلاؤهم على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م/ ٤٩٣ هـ بمثابة الضربة القاصمة التى وجهت إلى المسلمين بصفة عامة ، وإلى الخلافة الفاطمية فى مصر بصفة خاصة . فاذا كان أولو الأمر فى مصر قد أبدوا ارتياحاً كبيراً للوجود الصليبى فى المنطقة منذ بداية الحركة الصليبية — قبل الاستيلاء على بيت المقدس اعتقاداً منهم أن قيام أملاك الصليبيين فى الشام يعتبر حاجزاً يحول دون زحف السلاجقة إلى مصر وضمها إلى ممتلكاتهم ، فالأمر أختلف بعد أن ازدادت أطماع الصليبيين وسيطروا على منطقة يعتبرها المسلمون ضمن أقدس البقاع الاسلامية ، وهى بيت المقدس التى كانت آنذاك فى حوزة الفاطميين . فكان من الطبيعى أن يفيق المسلمون من كبوتهم محاولين رفع هذه الحركة واعادة الأمور إلى طبيعتها الأولى . فوقعت المسئولية على عاتق وزير مصر الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى . فأخرج من مصر ثلاث حملات حربية فى الفترة الممتدة بين عامى ١١٠١ م ، ١١٠٥ م (٤٩٥ — ٤٩٩ هـ) ، موجهة ضد القوات الصليبية الموجودة فى فلسطين ليثبت للصليبيين مدى يقظة المسلمين وغيرتهم على كل شبر من الأراضى

المقدسة . ورغم بعض الانتصارات التى حققتها الجيوش الاسلامية فى هذه المحاولات الثلاث ، الا أنها لم تتمكن من تحقيق الهدف المنشود لها وهو استعادة بيت المقدس مرة أخرى للمسلمين فى هذا الوقت المبكر من الحركة الصليبية ومن هذا المنطلق جاء أختيارنا لموضوع البحث وهو :

حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل

(١١٠١ – ١١٠٥ م – ٤٩٥ – ٤٩٩ هـ)

وذلك بهدف توضيح الجهود الكبيرة التى بذلتها مصر فى مواجهة التدخل الصليبى ودفعه وهو لا يزال فى بدايته .

وقبل الدخول فى تفاصيل الموضوع يستحسن القاء نظرة سريعة على جغرافية مدينة الرملة وطبوغرافيتها باعتبارها مسرحاً للحملات الثلاث موضوع هذه الدراسة . وكذلك التعرف على الظروف التى ساعدت الصليبيين على الاستيلاء على مدينة الرملة ، ثم استعراض أحوال العالمين الاسلامى والمسيحى آنذاك بتركيز . وكان اعتمادنا فى المرتبة الأولى على الأصول والمصادر القديمة من أجنبية وعربية . وجانب من الأصول الأجنبية لا يزال بلغاته الأصلية التى دون بها كاللاتينية والفرنسية القديمة . كما أن بعض المنابع العربية لا يزال خطياً لم ينشر بعد هذا إلى جانب كتب المسالك والمراجع الحديثة المتخصصة .

كانت مدينة الرملة احدى المدن الرئيسية الكبرى التابعة لفلسطين ، وهى فى نفس الوقت عاصمة لاقليم فلسطين الجنوبى حتى قبل استيلاء الصليبيين عليها عام ١٠٩٩ م/ ٤٩٣ هـ (١) وكان أهم كل من الشام والمغرب

---

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٦٤ ؛ ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧١ راجع أيضاً :

Stanly, Sinai and Palestine, p. 224; Benvensiti, The Crusades in the holy land, p. 167.

يطلقون عليها اسم فلسطين (١) . وهى تقع شمال غربى القدس ، تبعد عنها بثمانية عشر ميلا تقريباً ، وتبعد عن عكا بعشرين كيلو متراً ، وعن صور بثمان وعشرين كيلو متراً (٢) . كما تقع على بعد أربعة كيلو مترات من اللد (٣) . وتبعد المدينة عن الشاطىء بحوالى أربعة كيلو مترات (٤) . ولهذه المدينة أهمية استراتيجية كبرى باعتبارها فى مفترق الطرق المؤدية إلى بيت المقدس (٥) . وهى تقع فى احد السهول المنبسطة على ربوة قليلة الارتفاع (٦) . وكلما زاد الاقتراب من المدينة زادت كثرة الرمال وزاد عمقها لدرجة تغرس فيها الأقدام . ومن هنا كان اسم المدينة مشتق من الكلمة العربية «الرملة» أى المكان الرملى (٧) . وكان لهذا أثر كبير على طبيعة الجو هناك ، حيث أتسم بالقسوة خاصة إذا ما هبت رياح ساخنة محملة بالأتربة مما يجعل حياة الناس وسط هذه الظروف صعبة قاسية . ولذلك كان كثير من أهل المدينة يتجنبوا الاستقرار عند الطرق المرتفعة الموجودة فى المدينة ، لتفادى ما قديصيبهم من أضرار ناجمة عن هبوب العواصف والرياح (٨)

ويرجع تاريخ بناء هذه المدينة إلى عهد الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ — ٧١٨ م / ٩٦ — ٩٩ هـ) . فعندما اعتلى عرش الخلافة الاموية عام ٧١٥ م / ٩٦ هـ أعرب عن استيائه الشديد من اتخاذ مدينة اللد المسيحية عاصمة للاقليم الجنوبى من فلسطين . فشرع عام ٧١٧م / ٩٨هـ فى وضع أساس مدينة جديدة ، هى مدينة الرملة . وعند الانتهاء من بنائها

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٩ .

(٢) رحلة بنيامين التطيلى ، ترجمة عزرا حداد ص ١٠٨ ، مؤلف مجهول : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٨٣ ، الانصارى الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٠١ ، أبو الفدا تقويم البلدان ص ٢٤١ ، ناصر خسروا : المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) Sanuto, Description of the holy land, p. 18; smith, The Historical Geography of the holy land, p.165.

(٤) ناصر خسرو : نفس المصدر والصفحة .

(٥) Benvenisitf, op. cit., p. 168.

(٦) Ibid; Hand Book for travellers in Sinai and palestine, p. 262.

(٧) Lamb, The Crusades p. 189.

(٨) Stanly. op. P. 224.

هاجر اليها معظم سكان مدينة اللد . وأصبحت منذ ذلك الوقت مركزاً هاماً في المنطقة ومصدراً للقوى المحيطة بها (١) .

ولعل من أهم المعالم المعمارية الرئيسية في مدينة الرملة ذلك البرج الضخم الذي يقف على ربوة عالية تبعد مسافة ربع ميل من المدينة نفسها (٢) وقد أختلف المؤرخون الحديثون حول تاريخ بناء هذا البرج وانتهى الرأي إلى أنه ينتسب إلى الامبراطورة هيلانه (٣) . وظل على نفس حالته حتى الغزو الصليبي للمنطقة والاستيلاء على المدينة عام ١٠٩٩ م/ ٤٩٣ هـ . فأدخل الصليبيون عليه بعض التعديلات والاضافات ، وانشأوا بجواره ديراً للرهبان ومكاناً خاصاً بجماعة الفرسان الداوية . وقد استخدمت قمة هذا البرج لتكون قبة لجرس الدير (٤) .

وكان يوجد أيضاً بالرملة حصن كبير مزود بابراج عالية يرجع تاريخ بنائه إلى الملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس اللاتيني (٥) (١١٠٠ — ١١١٨ م / ٤٩٤ — ٥١١ هـ) وكانت المدينة تضم كثيراً من العناصر الاسلامية والمسيحية . أما بالنسبة للعنصر اليهودي المتواجد هناك ، فكان في بداية الأمر قلة بالنسبة للعنصرين الأخرين . ولكن سرعان ما زاد عدد اليهود بشكل ملحوظ في بدايات القرن الحادي عشر الميلادي (أوائل القرن الخامس الهجري) (٦) .

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق ص ٢٤١ ، الا نصاري الدمشقي : المصدر السابق ص ٢٠١ انظر كذلك من المراجع الأجنبية :

Benvenisiti op.cit., 167; Hand Book for travellers in Sinai and Palestine, 263; Margoliouth, Cairo, Jerusalem andDamascus, p. 198.

(٢) Alphonso de la Martine, Travelles in the East, p. 137; Franklin, Palestine, Depicated and Described, p. 18.

(٣) المقصود بها أم الامبراطور الروماني قسطنطين (٢٠٥ — ٣٣٧ م) .

(٤) Hand Book for travellers in Sinai and palestine, p. 262.

(٥) Fabri, cf. Palestine pilgrim's Text Society, 11, pp. 403 — 404.

(٦) Benvenisiti, op.cit., p. 167.

وتعرضت مدينة الرملة خلال هذا القرن لعديد من الكوارث التى حلت بها . فنى عام ١٠٢٥م—٤١٧ هـ أصابها الخراب على يد غزو بعض قبائل البدو لها (١) . وفى شهر ديسمبر عام ١٠٣٣م — المحرم ٤٢٥ هـ دمر أحد الزلازل معظم مبانيها ، ولكن دون أن يصاب أحد من سكانها بسوء (٢) . ورغم كل هذا فقد تحمل الأهالى كثيراً من أجل اعادة بناء المدينة من جديد ، وتجميلها فى صورة أحسن مما كانت عليه . إذ يتضح من كتابات الرحالة ناصر خسرو فى كتابة «سفرنامة» أثناء زيارته للمدينة عام ١٠٤٧م — ٤٤٠ هـ بأنها مدينة جميلة بها سور حصين من الحجر والجص وعليه أبواب حديدية . كما أشار إلى مدى اعتماد الأهالى هناك على مياه الأمطار ، فاهتموا ببناء حوض فوق كل منزل لجمع مياه الأمطار لتبقى ذخيرة دائمة لهم (٣) . ولكن إذا كان الأهالى قد عانوا كثيراً من أجل اعادة ترميم المدينة ، فلم يكد يستريحون حتى تعرضت للمرة الثانية عام ١٠٦٧م — ٤٦٠هـ لزلزال آخر أشد عنفاً من الأول ، وقد قضى على عدد كبير من أهالى المدينة ، بلغ عددهم حسب آخر الاحصائيات مايقرب من عشرين ألف نسمة (٤) .

يتضح مما سبق مناعة مدينة الرملة مما جعلها عزيزة لا ترام . ومع ذلك لم يجد الصليبيون فى حملتهم الأولى ضد الشرق الأدنى الاسلامى ، صعوبة كبيرة فى الاستيلاء عليها ، وكان لهذا أيضاً أسبابه ودوافعه ، فبعد أن استولوا على كل من الرها وأنطاكية فى عام ١٠٩٨م— ٤٩٢ هـ ، وأسسوا أمارتين بها ، عقدوا العزم على السير نحو بيت المقدس . ولكن حدث انقسام فى الرأى بين الصليبيين حول أفضل الطرق التى يجب أن يسلكونها وهم فى الطريق

---

(١) Benvenisiti, op.cit., p. 167.

(٢) Ibid.

(٣) ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٤) Benvenisiti, op.cit., p, 168.

إلى بيت المقدس . وكان الرأى الغالب يؤيد فكرة السير بحذاء الساحل حتى يتمكنوا من الحصول على كل ما يحتاجونه من تموين وامدادات من كل من السلطات البيزنطية وقبرص ، فضلا عن امكانية مساعدتهم بواسطة الأساطيل الغربية التى اتخذت من السويدية واللاذقية قواعد لها (١) . ولكن مما لا شك فيه أن هذا الطريق كان يتطلب تضحيات كبيرة ووقتاً طويلا ، لأنه فى هذه الحالة لابد وأن يستولوا على الحصون الواقعة على الساحل . والواضح أن القوة الضاربة للجيش الصليبى كانت لا تتجاوز وقتذاك ألف فارس وخمسمائة من المشاه ، وهو عدد قليل جداً لا يتناسب مع حصار هذه الحصون الكبيرة . ولذلك رأى الفريق الآخر ضرورة السير فى الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس ، حتى يتجنبوا الكثير من المشاكل السابقة . ولكن كان الاعتراض على هذا الرأى قائم على أن المنطقة بين لبنان والصحراء واقعة تحت حكم دقاق أمير دمشق (١٠٩٥ — ١١٠٤م — ٤٨٩— ٤٩٨ هـ) الذى يختلف عن امراء العرب ، فى كفاحه وغيرته على وحدة المسلمين . فلابد وأنه سيقاوم تقدم الصليبيين (٢) . وبعد هذا النقاش الطويل انتهى الأمر بالسير بحذاء الساحل على الا يضيعوا وقتاً كثيراً أثناء مرورهم أمام الموانى الداخلية التى تقابلهم بل المرور السريع عليها ، والاستيلاء على كل ما يمكنهم الحصول عليه منها لضمان توفر امداداتهم لأطول وقت ، خاصة وهم يعلمون أن هذه الفترة تتفق مع موعد جنى المحصول والحصاد فى هذه المدن (٣) .

على أية حال ، واصل الفرنج السير بحذاء الساحل حتى ارسوف ،

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ .

(٢) Runciman, A History of the Crusades, 11, p. 268.

(٣) Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, CF. R.H. C, H. occ., 111, p. 507.

وبعدها تركوا الشاطىء وتوجهوا إلى الداخل فى طريق بيت المقدس ، وكان جود فرى دوق اللورين السفلى وقائد أحدى الفرق الصليبية (١) قد أرسل إلى الأمير تانكريد ابن أخت بوهيموند النورماندى فى نابلس مخبرة بأنه متجهاً ناحية الرملة ، ويطلب منه سرعة الحضور بالمؤن والامدادات لتعزيز القوات الصليبية ضد أى معركة حربية قد تنشأ مع حامية هذه المدينة (٢) . ووصلت القوات الصليبية إلى مدينة الرملة فى مايو ١٠٩٩م جمادى الآخرة ٤٩٣ هـ ، وعسكروا بجوارها وكانت المدينة آنذاك خاضعة لسيطرة الخلافة الفاطمية فى مصر فى عهد الخليفة المستعلى بالله (١٠٩٤ — ١١٠١م ، ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ) (٣) وما أن سمع أهلها بقرب وصول القوات الصليبية تجاههم حتى دب الذعر فى قلوبهم، وانهارت المقاومة بسبب ضعف حامية المدينة وقلة عددها . ثم أن بعدها عن البحر جعل مساعدة الأسطول المصرى لها أمراً متعذراً . ولذلك لاذوا بالفرار من دورهم بعد أن دمروا فى شيء من التحدى كنيسة القديس جورج — الواقعة فى اللد على مقربة من مدينة الرملة (٤) . وعندما أراد الصليبيون اقتحام أسوار المدينة لاحظوا

---

(١) تولى حكم هذا الاقطاع عام ١٠٨٩ م . وعندما استولى على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م وتأسست المملكة اللاتينية عين ملكاً عليها . ولكن لم يستمر فى الحكم طويلا حيث مات بعد عامين ، وأصبح شقيقه بلدوين بعد موته الحاكم الثانى لمملكة بيت المقدس.أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ١٥٣ .

(٢) Lamb. qo. cit. p. 255

(٣) Fulcher of chartres, A history of the expedition to Jerusalem, p. 155; Baldrici, Historia Jerosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., Iv. 95' cf. also : Conder, the Latin Kingdom, p. 157; watson, Jerusalem, p. 172.

انظر كذلك : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ، ص ٢٣ .

(٤) Gotfridi, Anonymo Rhenani Historia et Gesta ducis Gotfridi, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 492; Roberti, Historia Iherosolimitana, cf. R.H.C.— H. occ., 111, p. 859; cf. also : Grousset, Histoire des Croisades, 1, p. 150; Runciman, op. cit., 1, p. 276 — 277; Benvenisiti, op.cit., p. 167; Belloc, The Crusades, p. 135.

ويقال ان جثمان القديس جورج مدفون بهذه الكنيسة وانه كان احدالقديسين الذين تعمدوا=

أن الطرقات مهجورة والدور خالية من السكان فأعتبروها لقمة سائغة لهم . وفى الحال تقدموا فى سرعة فائقة ، واستولوا عليها وهم متعطشين للاستمتاع بكثرة أراضيها المخصبة الصالحة للزراعة (١) وسكنوا بها أربعة وعشرين يوماً من ٢٤ مايو حتى ١٧ يونيو عام ١٠٩٩ م (من ٢٣ جمادى الآخرة حتى ١٨ رجب ٤٩٣ هـ) (٢) لقد فرح الصليبيون واشتدت حماستهم لمواصلة باقى العمليات الحربية بسبب احتلالهم مدينة الرملة الاسلامية الواقعة فى جوف الأراضى المقدسة . واقسموا على أن ينهضوا بعمارة كنيسة القديس جورج وأن يعمروا كلا من الرملة واللد ، وأن يجعلوا منها لوردية تنتمى إلى القديس جورج ، وأن يقيموا أبرشية جديدة يتولاها أسقف اللد . وبالفعل تقرر تنصيب أحد القساوسة النورمان ، واسمه روبرت روان Robert de Rouen ، سيدا على اللد والرملة معاً (٣) واستمرت مدينة الرملة طوال حكم الصليبيين لها قاعدة خلفية للجيوش الصليبية فى شتى المعارك التى خاضوها ضد المسلمين (٤) . ولذا أدرك الصليبيون بثاقب نظرهم أهمية المدينة ، وضرورة حماية طريق البحر الموصل لبيت المقدس . ولذا عندما فكروا فى الرحيل منها للتوجه إلى يافا ، تركوا بها حامية صغيرة لحراستها ضد أى محاولة غزو يقوم بها الفواطم فى مصر بهدف استعادتها مرة أخرى (٥) .

وجدير بالذكر فى هذا المقام ، أن هذا النجاح الذى احرزه الصليبيون فى استيلائهم على مدينة الرملة وغيرها من المدن الاسلامية الأخرى ،

= بالشهادة فى هذه البقعة من الأرض من أجل احياء ذكرى المسيح وتمجيده. انظر أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ١١٤ .

(١) Gotfridi, op. cit., Loc. cit.

(٢) Fulcher of charters, op. cit., p. 155.

(٣) Runciman, op. cit., I, p. 227; Grousset, op.cit., I, p.150.

(٤) Benvenisiti, op. cit., p. 168.

(٥) Ibid; Belloc, op. cit., . 135; Grousset, op. cit., p. 150.

وتأسيس الامارات اللاتينية الأربع وهى الرها فى أعالى الفرات ، وانطاكية فى أعالى الشام ، وطرابلس على الساحل الشامى وأخيراً بيت المقدس فى قلب فلسطين ، لايرجع إلى قوتهم أو كثرة عديدهم ، ولا يعزى إلى المساعدات التى كانوا يتلقونها من الغرب ، وإنما يرجع أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين وقتها ، لأن القوات الصليبية عندما تقدمت إلى الشرق الأدنى لم تصادف قوات اسلامية متحدة ، بل صادفت قوى متفرقة متنازعة ، بسبب سوء الحالة السياسية فى العالم الاسلامى آنذاك (١) .

فكانت الخلافة العباسية تعانى كثيراً من الضعف والانحلال بسبب كثرة الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة ، مما أدى إلى تقلص نفوذ الخليفة العباسى ولم يعد له أى ظل من السلطان آنذاك . خاصة وأن الخلافة العباسية كانت منصرفة إلى محاولة التشكيك فى نسب الفاطميين والشيعة واعادة المذهب السنى إلى مكانته الأولى (٢) .

أما بالنسبة للخلافة الفاطمية ، فلم تكن بأحسن حالا من الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تنخر فى كيانها منذ آواخر حكم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ — ١٠٣٥ — ١٠٩٤م) . فبلغت درجة كبيرة من التدهور ، مما أدى إلى انسلاخ كثير من املاكها فى بلاد الشام عنها . كما كانت فى هذا الوقت مشغولة فى محاولة انتزاع زعامة العالم الاسلامى من الخلافة العباسية وتقويض دعائمها واحلال المذهب الشيعى بدلا من المذهب السنى (٣) .

---

(١) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ، ص ٩ .

(٢) الاربلى : خلاصة الذهب المسبوك ، مختصر من سير الملوك ، تحقيق مكى جاسم ص ٢٢١ ٢٢٢ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٧ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ ١ ، ص ٢٤٣ ، محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٣٦ .

هذا فيما يتعلق بكل من الفواطم وبنى العباس ، أما بالنسبة للقوة الثالثة فى المشرق الاسلامى فهى الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى : فقد أصبحوا فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) فى حالة من الفوضى والاضطراب والانقسام السياسى والأسرى . وبدأ التفتت يظهر على ممتلكات هذه الدولة التى انقسمت إلى وحدات سياسية صغيرة تنافس كل منها الأخرى فى بلاد الشام(١) . وقد بلغ العداء بين الفاطميين والسلاجقة أن الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر ، والتى كانت فى طور الاحتضار وقتذاك ، كانت لا تدرك طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أنها رأت فى وصول القوات الصليبية فرصة ذهبية لاستعادة ممتلكاتها الضائعة بالشام ، والتى كان قد استولى عليها السلاجقة وأولها بيت المقدس . ففكرت فى مشروع التحالف مع تلك القوة الجديدة ضد خصومها من أهل السنة ، وهم الخلافة العباسية فى بغداد والأتراك السلاجقة فى الشام (٢) ، بحيث يقف الفرنج عند انطاكية ويستولى الفاطميون على بيت المقدس (٣). وكان من الطبيعى أن يوافق اللاتين على مثل هذا التحالف ولو مؤقتاً ، إذ سيضمنون وقوف الفاطميين على الحياد فى الصراع بينهم وبين السلاجقة مما يتيح لهم فرصة القضاء على مقاومتهم فى أعالى الشام . وبذلك يتسنى لهم التفرغ لمقاومة الفاطميين بعد ذلك . وهذا ماحدث تماماً ، فاستولى الفاطميون على القدس فى أغسطس ١٠٩٨م — شعبان ٤٩١ هـ . ولكن سرعان ماتبدد هذا الحلم الذى عاشه الفاطميون بمجرد تقدم الصليبيين جنوباً وانتزاعهم بيت المقدس منهم فى يوليو ١٠٩٩م ، شعبان ٤٩٢ هـ .

وإذا كان هذا هو حال الشرق الأدنى الاسلامى فى الفترة المعاصرة

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ١٤ ، محمد الشيخ : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) ChalandoneHistoire dela Premiere Croisade, p. 196.

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East, p. 26.

لموضوع البحث فليس معنى هذا أن الغرب الأوروبى – الذى أمد الحركة الصليبية بمساعدات مستمرة – لم يكن يعانى من الفوضى والاضطراب . فقد كانت أحوالهم تتسم بمظاهر المنازعات والحروب ، فضلا عن الانشقاقات الدينية بين رأسى العالم المسيحى الغربى وهما البابا والامبراطور هذا بجانب الخلافات القائمة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية (١) .

على أية حال ، كان انتشار نبأ سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين عام ١٠٩٩م ، ٤٩٢ هـ بمثابة الضربة القاصمة التى وجهت إلى العالم الاسلامى بصفة عامة ، وإلى الخلافة الفاطمية فى مصر بصفة خاصة . ولكن إذا كان الفاطميون فى مصر قد اعتادوا السكوت من قبل عند اقتطاع أى جزء منهم فى الشام بمعرفة الصليبيين ، فلم يكن هذا حالهم عند ذاك . فأخذ الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى (٢) يفكر جدياً فى استعادة هذا الجزء

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٩٢ وما بعدها ، سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٣٣٨ – ٣٩٤ ومن المراجع الأجنبية انظر :

Setton, Ahistory of the Crusades, pp. 3-31 Stanley, Europe in the Middle Ages, pp. 329 — 365.

(٢) هو أبو القاسم شاهنشاه الملك الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، كان أبوه أرمنى الجنسية ، وكان من الرجال المعدودين من ذوى الآراء والشهامة والقوة. وقد استنابه الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) ١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) بمدينة عكا . ولكن لما ضعفت أحوال البلاد المصرية استدعاه الخليفة عام ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٤ م لتدبير أمور الدولة بمصر ، فأصلح الحال بها . ولما اشتد به المرض مهد الأمور لابنه الأفضل لتوليه أمر الوزارة من بعده . وكان الأفضل حسن التدبير ، وهو الذى نصر المستعل على أخيه نزار وأقامه على حكم مصر خلفاً لأبيه المستنصر بالله وفى نفس الوقت له الفضل فى مناصرة الآمر بأحكام الله لتوليه أمور الخلافة بعد وفاة المستعل عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م . وقيل أنه حجر على الخليفة الآمر ومنعه من ارتكاب الشهوات ، فعمل هذا على قتله ، فحرض عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه فى رمضان عام ٥١٥ هـ/ نوفمبر ١١٢١ م . ولكن قيل رأى آخر فى مقتله خلاصته أنه لما اشتدت هجمات الصليبيين على مدينة صور وعجزت الدولة الفاطمية عن نجدتها ، استنجد أهلها بطغتكين صاحب دمشق فأرسل إلى الوزير الفاطمى الأفضل يسأله موافقته على احتلال المدينة وحمايتها حتى =

العزيز لدى كل الأمة الاسلامية . فانتهز فرصة انصراف الملك الصليبي بلدوين (١١٠١ — ١١١٨ م ؛ ٤٩٤ — ٥١٢ هـ) مع معظم قواته فى حصار قيساريه(١) ، ثم انشغاله فى تقسيم الغنائم التى حصل عليها الصليبيون عقب سقوط المدينة فى أيديهم فى ١٧ مايو ١١٠١م ، ٢٣ جمادى الآخرة ٤٩٤ هـ) وأعد جيشاً كبيراً تجاوز العشرين ألف مقاتل ، خلاف الأخرين الذين كلفهم مهام أخرى غير القتال مثل حمل الأمتعة وتجهيز المؤن (٢). وأسند أمر قيادة الجيوش الغفيرة إلى الأمير سعد الدولة الطواشى الحاكم السابق

= لا تسقط فى ايدى الصليبيين. ولكن أثارهذا الموقف غلاة الشيعة فى مصر والشام فتربص له البعض من رجال الفداوية الاسماعيلية أثناء ذهابه إلى مخزن السلاح وطعنوه بخناجرهم وأصابوه اصابة خطيرة عجلت بوفاته ، وكان عمره حينذاك سبع وخمسين عاماً . وقيل أنه ترك ثروة طائلة تتضمن أموالا لا تحصى وتحفا يعجز عن وصفها . أنظر : المقريزى أتعاظ الحنفا ج ٢ ، ص ٢٣١ ، ج ٣ ص ٦١ — ٦٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٠ ؛ ابن ايبك كنز الدرر ج ٦ لوحة ٣٤١ ، العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٤ ص ٤٧ ؛ النويرى : ج٤ ص ٤٧ ؛ النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ لوحة ١٠٩ أنظر أيضاً :

Defremery, Nouvelles Recherches surles Ismaeliens au Bathiniens de syrie, p. 403.

(١) تقع قيسارية على ساحل البحر المتوسط ، وتبعد عن يافا ناحية الشمال بحوالى ٣٠ ميلا ومن بيت المقدس من ناحية الشمال الغربى بحوالى ٦٢ ميلا ، ومن عكا بحوالى ٣٦ ميلا ، وقيل أنها بنيت عام ٢٢ ق . م . وكانت المدينة تتمتع بأسوار حصينة وأبراج عديدة ، فضلا عن مرسى ضيقه لا يتسع الا لمركب واحدة . واستولى الصليبيون عليها عام ١١٠١ م/ ٤٩٥ هـ ، واستردها المسلمون منهم عام ١١٨٧ م/ ٥٨٣ هـ . وبعد ذلك أخذت تترنح بين الطرفين إلى أن سقطت نهائياً فى أيدى المسلمين عام ١٢٦٥ م/ ٦٦٤ هـ . انظر : رحلة بنيامين التطيلى ص ٩٤ ، ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٨ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٣٨ ، الادريسى : نزهة المشتاق ، رقم ٦٥ ، خليل خورى : خرابات سوريا ص ٣٣ — ٣٤ . ومن المراجع الأجنبية راجع أيضاً :

Muller, Castles of th Crusades, p. 24; Banister, A Survey of holy Land, p. 27 Taylor, La Syrie, l'Egypte et la Palestine, p. 267.

(٢) Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem et. R.H.C. — H. occ III, p. 527, Gotfridi, op. cit., p. 505.

لمدينة بيروت (١)

هذا ، وإن كان المؤرخ الانجليزى رانسيمان يرى أن السبب الحقيقى لخروج هذه الجيوش من مصر انما يرجع إلى رغبة الوزير الفاطمى الأفضل فى الانتقام من الهزيمة التى منيت بها الجيوش الاسلامية أمام القوات الصليبية فى معركة عسقلان التى تمت فى أغسطس عام ١٠٩٩م ، رمضان ٤٩٣هـ(٢).

ولكننا نختلف فى الرأى مع ما ذكره رانسيمان . إذ أن وجهة نظره تعبر عن نوع من أنواع المكابرة والتعصب لبنى جلدته ، بل والاصرار على عدم الاعتراف بأهمية مصر ومحاولاتها فى الوقوف ضد القوات الصليبية ، وبالاضافة التى يدت عليها عندما أدرك حكامها الفواطم مدى الخطأ الذى ارتكبوه فى حق العالم الاسلامى عندما تحالفوا مع الفرنج ضد المسلمين أنفسهم من عباسيين وسلاجقة ، فأتاحوا الفرصة للتوغل الصليبى فى المنطقة . فواضح أنهم أرادوا أن — يصلحوا مانتج عن هذا الخطأ بقيام عدة حملات هدفها استعادة ماسلبه الصليبيون منهم . ولعل مايعزز هذا القول أنه إذا كان هناك الأمر يتعلق بالانتقام فقط — وفق ما أشار رانسيمان — ما كان هناك أى داع لتصميم الوزير الفاطمى الأفضل على ارسال حملة ثانية عام ١١٩٢م ، ٤٩٦ ثم ثالثة ١١٠٥م ، ٤٩٩هـ لتحقيق نفس الهدف . فضلا عن المحاولات الأخرى والتى قام بها عام ١١٠٦م — ٥٠٠هـ والتى حققت فيها الجيوش الاسلامية مالم تحققه خلال الحملات الثلاث السابقة هذا ، بجانب المحاولة التى تبناها الوزير الأفضل عام ١١١٠م — ٥٠٤هـ والتى تمكنت خلالها الجيوش الاسلامية من الوصول إلى أسوار بيت المقدس مكتسحة أمامها المقاومة الصليبية التى اعترضت طريقها . ولكن مالبثت أن انسحبت تلك الجيوش .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٤ العينى : عقد الجمان ، جـ ٢٠ لوحة ٤٩٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٢ راجع كذلك :

Grousset, op.cit, I,p. 224.

(٢) Runciman, op. cit., I, p. 73.

هذا فضلا عن أن كثيراً من المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة أمثال البرت ديكس ، وجوتفريدى Gotfridi ، والمؤرخان المجهولان فى كتابيهما «تاريخ بيت المقدس» وأعمال الفرنجة» ، قد ذكروا أن سبب الحملة التى شنها الوزير الفاطمى الأفضل ضد الصليبيين عام ١١٠١م- ٤٩٤ هـ كانت تستهدف قتال الفرنج بالشام واستعادة بيت المقدس (١) .

على أية حال ، تجمعت الجيوش المصرية فى مايو ١١٠١م – شعبان ٤٩٤ هـ أمام عسقلان باعتبارها مركز لانطلاق ورحيل كل الغزوات المصرية الموجهة ضد الصليبيين فى فلسطين فيما بعد (٢) . وأخذت الحملة المصرية الأولى طريقها ناحية بيت المقدس .وعندما اقتربت من مدينة الرملة أدرك سعد الدولة ، قائد الجيش المصرى سرعة تحرك الجيش الصليبى بقيادة الملك اللاتينى بلدوين من قيسارية فى طريقة إلى الرملة ، بعد أن ترك حامية صغيرة فى قيسار يه لحمايتها ضد أى محاولة اسلامية تهدف استعادتها . ولهذا اضطر الأمير المصرى أن يتقهقر للوراء مع قواته والعودة إلى عسقلان . واستمر بها أكثر من شهرين طلباً للراحة وانتظارا لوصول امدادات جديدة . أما من ناحية بلدوين ، فبعد أن وصل إلى الرملة عمل على تحصينها ثم تركها متجهاً إلى يافا لمراقبة تحركات المصريين . وظل بها طوال شهر يونيو من نفس للعام (١١٠١م – ٤٩٤هـ) وبعدها توجه إلى بيت المقدس حيث قضى هناك شهرى يوليو وأغسطس من نفس العام بقصد جمع المال والرجال (٣).

---

(١) Gotfridi, op.cit., p. 505 ;Anonymous, Gesta Francorum Expugnatium Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ. III, p. 527; Anonymous, Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 559 Albert d'Aix, Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C.—H. occ, IV, p. 459.

(٢) Grousset, op. cit., I, p. 224; Stevenson, op. cit., p. 48; Besant, The History of Jerusalem, p. 244.

(٣) Gotfridi, op. cit., p. 505; Anonymous, Historia Hierosolimitna cf. R.H.C. — H.occ., IV, p. 559. cf. also : Grousset, op. cit., I, p. 225.

ولكن خلال الأيام الأخيرة من شهر أغسطس عام ١١٠١م – ذى القعدة ٤٩٤ هـ نمى إلى علمه تحركات كثيرة للجيش المصرى ، على اثر وصول امدادات جديدة اليه ، بهدف المسير تجاه بيت المقدس . ولذلك جمع رجاله من القدس وطبرية وقيساريه وحيفا ، وكان لحوحاً متعجلا فى هذا الشأن . ورغم ذلك لم يكن معه سوى مائتى وستين فارساً وتسعمائة راجل ، فى حين أن جيش المسلمين تجاوز العشرين ألف مقاتل (١) . وجدير بالذكر أن كل من المصادر الاسلامية والغربية لم تعلل سبب عدم امكانية الملك بلدوين فى جمع عدد كبير من المقاتلين الفرنج يتقارب مع عدد الجيش المصرى رغم أن الحركة الصليبية كانت لاتزال فى بدايتها ولعلنا نرى أن هذا يرجع إلى الغرور الكبير الذى يكون قد سيطر على الملك بلدوين بسبب تلك الانتصارات الحاسمة التى حققتها جيوشه من قبل على المسلمين منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الأراضى المقدسة واستيلائها على بيت المقدس عام ١٠٩٩م – ٤٩٢ هـ . فربما يكون هذا قد قلل من شأن قوة المسلمين فى نظره وجعله واثقاً فى الانتصار بأقل عدد ممكن من قواته .

---

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 156; Gotfridi, op. cit., Loc. cit; Anonymous, op. cit. Loc. cit., Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Ierusalem, cf. R.H.C. — H. occ., III, p. 527; cf. also : Grousset, op. cit. Loc. cit.

وجدير بالذكر أن المؤرخين الغربيين قد أعتادوا على المبالغة فى ذكر اعداد الجيوش الاسلامية والصليبية على حد سواء . ولذلك نجد اختلافات كبيرة فى هذا المجال بين بعض المؤرخين المعاصرين للفترة الزمنية موضوع البحث . فعلى سبيل المثال فى الوقت الذى يذكر فيه البرت ديكس ان عدد جيش المسلمين المشترك فى هذه المعركة بلغ ٢٠٠ ألف مقاتل ، نجد مؤرخاً آخر أجهولا يذكر فى كتابه «أعمال الحجاج» ان عددهم ٢٠ ألف راجل و ١٥ ألف فارس . بينما يشير فولشيه أوف شارتر ان عددهم كان ١١ ألف فارس وعشرين ألف راجل ، وهكذا ولذا لن نهتم بذكر هذه الاعداد ، والتناقضات فى هذا الشأن ، ولن نخوض فى تفاصيل سبب هذا الاختلاف على مدى صفحات البحث ، لأنه بات من الواضح انه ليس للأرقام معنى سوى أنها تدل على مدى ضخامة الجيش لكلا الطرفين ، فى وقت لم توجد فيه احصائيات يمكن الاعتماد عليها .

على أية حال ، بعد عدة أيام كانت الجيوش الاسلامية قد تحركت من عسقلان إلى مدينة الرملة وعسكرت بجوارها . ولما علم الملك بلدوين بهذا الأمر عقد تحت أسوار مدينة يافا مجلساً للحرب قرر فيه سرعة التوجه لمواجهة المسلمين . وعندذاك ألقى ارنول مالكورن — Ernol Malcorn رئيس الشمامسة خطبة حماسية لاثارة مشاعر المقاتلين . ثم تبعه موريس المندوب البابوى بتلاوة نصوص الغفران . وبعد ذلك تحرك بلدوين على رأس قواته ناحية مدينة الرملة ، ثم عسكر بينها وبين اللد(١) . وكان الجيش الصليبي حينذاك ينقسم إلى خمس مجموعات ؛ تولى قيادة المجموعة الأولى الفارس بيرفولد Bervlold ، وقاد المجموعة الثانية جيلدماركارينل Geldemar Carpenel سيد يافا ، أما المجموعة الثالثة فكانت تحت قيادة هيودى سانت أومرHvgue de Saint —Omer سيدطبرية . بينما كان القسمان الآخران يتكونان من فرسان بيت المقدس برئاسة الملك بلدوين نفسه (٢) . وكان الملك قد أخذ على عاتقه فى بداية الأمر مسئولية حمل الصليب المقدس لادخال الطمأنينة فى نفوس المقاتلين(٣) . وعندما لمح بلدوين وباقى أفراد جيشه من بعد مدى ضخامة الاعداد التى تتألف منها الجيش المصرى ، سرعان مادب الذعر فى قلوبهم ، وانهارت مقاومتهم ؛ وهبطت روحهم المعنوية للفارق العددى الكبير والواضح بين الطرفين . ولذا بات من الضرورى على الملك بلدوين أن يعيد التفكير أكثر من مرة قبل الاشتباك مع جيش المسلمين ، ولو اضطر الأمر للانسحاب من ساحة الميدان وذلك لأن مجرد موافقة الملك على بدء الحرب ضد هذه الأعداد الغفيرة يعد جرأة كبير ومغامرة غير مضمونة النتائج ، وقد يطيح بالقوات الصليبية بأكملها.

وجدير بالذكر ، أنه عندما لاحظ الملك اللاتينى الرعب الذى سيطر على وجوه مقاتليه ، ألقى عليهم خطبة دينية حماسية ليبث فيهم الشجاعة

---

(١) Gotfriid, op.cit., p. 505; cf. also ; Grousset; op. cit., !, 225.

(٢) Albert d'Aix op. cit., 549, cf. also : Grousset, op.cit;I, p. 226.

(٣) Flucher of Chartres, op. cit., p. 157.

والاقدام على القتال حتى يتحقق النصر . وفيما يلى نص هذه الخطبة (١) .

«انتم ياجنود المسيح ، لقد اتيتم من بلاد بعيدة عبر البحر والبر ، مضحين بأرواحكم من أجل نصرة المسيحية . فكونوا شجعانا ، ولا تخشوا الموت ، ويجب أن تعتمدوا على الرب وتثقوا فيه ، لأنه الوحيد الذى يمكنه أن ينقذكم من المحنة التى تمرون بها . وثقوا أنه يحارب معكم ، ومن أجلكم ، ومن أجل نصرة الكنيسة وسائر المسيحيين (٢) . وثقوا تماماً أنه على الرغم من كثرة عدد المسلمين فأنكم أكثر منهم شجاعة ومقدرة على خوض الحرب . وتذكروا دائماً تلك الحروب السابقة التى حاربناهم فيها وانتصرنا عليهم واستولينا على أراضيهم . فكان ذلك بمعاونة وتأييد الرب . فرغم استخدامهم المكر والخديعة ، وكثرة كمائنهم ، كانوا يلوذون بالفرار من أمامنا .

واعلموا تماماً أن كثرة عددكم لن تعوق دون انتصارنا عليهم ، خاصة وأننا نحمل معنا خشبة الصليب المقدس ، تلك البركة التى تساعدنا فى القضاء عليهم . واعلموا أيضاً أن النصر والموت كلاهما واحد عند الله ، فاذا انتصرتم منحكم السعادة والمجد الدائم . وإذا أصابكم مكروه فى المعركة ، فتأكدوا بأنكم ستكونون شهداء فى مملكة الله . وأحذروا جيداً الهرب والخيانة ، فكلاهما يجلب على المسيحيين العار والهزيمة » (٣) .

---

(١) Ibid; Gotfridi, op. cit. Loc. cit.; Anonymous, Gesta Francorum Expugntium Ierusalem, cf. R.H.C. - H. occ., III, p. 528; Ekkehardi Abatis, Uraugiensis, Hierosulomitana, cf. R.H. C. H. occ., V, p. 32; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R. H.C. — H. occ., C, p.179.

(٢) المقصود هنا بالطبع الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية وأهل الغرب المسيحى .

(٣) ويمكن الرجوع إلى نص هذه الخطبة وتفاصيلها فى المصادر اللاتينية التالية .

Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H, occ., IV, p. 560; Anonymous, Gesta francorum expugnantium Ierusalem, III; p. 528. Flucher of Chartres, op. cit., 157; Gotfridi, op. cit., p. 507.

وكان لهذه الخطبة أثر كبير على الصليبيين فعادت الثقة إلى نفوسهم ، وجعلتهم يقدمون على الحرب بجرأة وشجاعة كبيرة ، دون النظر إلى الفارق العددى الكبير بينهم وبين جيش المسلمين . وسرعان ما هتفوا «ساعدنا يارب ..... ساعدنا يارب » Deus adjuva nos ، ثم قبلوا الصليب المقدس وابتدأوا الصلاة والتضرع إلى الله من أجل نصرتهم وتأييدهم فى هذه المعركة(١) وقد ازدادوا قوة وشجاعة بعد تلك التعزيزات التى وصلتهم من بين صفوف فرسان ومشاة الغرب الأوربي (٢).

وجدير بالذكر ، فى الوقت الذى كان فيه لتلك الخطبة الحماسية أثرها فى الهاب شعور الصليبيين وحثهم على مواجهة الموقف من مركز القوة دون النظر إلى عدم تكافؤ القوتين من الناحية العددية . فضلا عن عدم تقاعس أهل الغرب فى مديد العون والمساعدة إلى الملك الصليبي من أجل نصرة المسيحية الغربية ومجد المسيحيين كلهم . فى هذا الوقت ، لانرى أى خطوة ايجابية من سائر الدول الاسلامية الأخرى تجاه تلك الجيوش المصرية المتجمعة عند مدينة الرملة فى انتظار اشارة بدء المعركة . كما أننا لم نعثر فى بطون المصادر الاسلامية المعاصرة للفترة التى نحن بصددها أو المتأخرة عنها زمنيا، على أية اشارات تتضمن خطب حماسية تحث المسلمين وتشجعهم على مواصلة القتال أسوة بما كان يحدث لدى الصليبيين .

وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى أن ميزان القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين آنذاك كان فى صالح الغرب اللاتينى ولذلك كان للخطبة الحماسية المشار اليها نتائجها الايجابية بالنسبة للطرف اللاتينى . وفى الجانب الآخر كان التقاعس بسبب التفكك والانقسام السياسى والمذهبى الذى عانى منه المشرق

---

(١) Gotfridi, op. cit,, p. 507, Anonymous, Gesta Francorum expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ., II, p. 529; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C.H. occ,, IV, p. 862.

(٢) Anonymous, Gesta Francorum, III, p. 529.

الاسلامي . ولم تظهر الاستجابة الفورية لنيران الجهاد الا بعد حركة الافاقة الاسلامية فى بواكير القرن الثانى عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجرى) عندما بدأ الشرق الأدنى الاسلامى يتكتل فى جبهةواحدة لمواجهة الخطر الصليبي ودفعه .

مهما كان الأمر ، بدأت المعركة فى صباح السبت السابع من شهر سبتمبر عام ١١٠١م – العاشر من ذى الحجة ٤٩٤ هـ ، فى السهل الواقع جنوب غربى مدينة الرملة . وكانت تتسم بالشراسة والعنف ، لا رحمة فيها ولا هوادة (١) . وقد أبلى فيها المسلمون بلاءاً حسناً حسبما أشار كثير من المؤرخين الغربيين ، إذ اعترفوا صراحة بتلك الشجاعة النادرة التى أبرزها المصريون ابان المعركة (٢) . فمثلا شبه بعض المؤرخين المجهولين فى كتبهم اندفاع الجيوش المصرية داخل ميدان المعركة بالطيور الجارحة التى تنقض على فريستها دون أية رحمة . كما أوضحوا طريقتهم فى الحروب من القاء الكتل الصلبة والحجرية على شتى الفرق الصليبية ، فضلا عن مهارتهم فى استخدام السيوف والدروع لصد هجمات الفرنجة . كما أوضحوا أن الجيشين كانا متداخلان فيما بينهما بطريقة لا تمكن التميز والتفرقةبين كل طرف على حدة . وإن دل هذا على شيء ، فانما يدل على مدى شراسة وضراوة المعركة (٣) .

لقد ظهرت شجاعة المصريين طوال سير المعركة ، فعندما تم الاشتباك بين الطرفين تمكن المصريون من تحطيم القسم الأول من الأقسام الخمسة

---

(١) Anonymous, Historia Herosoli mitana, cf. R.H.C. — H. occ,, IV, p. 561; cf . also : Grousset, op. cit,, I. p. 226.

(٢) Fluhcer of chartres, op.,cit. 159.

(٣) Anonymous, Gesta Francorum, Cf. .R.H.C.- occ. III, p. 528; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C. - H. occ,, V, p.178 178.

للجيش الصليبي وقتل قائده بيرفولد .Bervold الذى شهد له المؤرخون بالبطولات وحسن التصرف فى شتى المعارك الأخرى (١) وكذلك كان مصير أفراد القسم الثانى ، فقد وجه المصريون اليهم ضربتهم القاصمة مما أدت إلى هزيمتهم هزيمة شنعاء حيث لم ينج منه سوى جنديان . وعندما أدرك قائد هذا القسم ، وهو جلدمار كارپنل Geldmar Carpeñel ، شدة الهزيمة التى أحاطت بجنوده حاول انقاذ الموقف بشتى الطرق ، ولكنه لم ينج ومات متأثراً بجراحه من فوق أحد الأبراج التى كان يشرف عليها (٢) .

أما بالنسبة للقسم الثالث من الجيش الصليبى فقد حاول قائده هيومبد طبرية أن يبرز شجاعته التى اشتهر بها خلال سير الحملة الصليبية الأولى . ولكن كان ضغط الجيش المصرى عليه يفوق تلك الصفات . ولذا لم يكن مصير هذا القسم أحسن حالا من القسمين الأخرين حيث تم سحقه وتدميره ، ولم ينج منه إلا قلة قليلة من ضمنها هيو Hugu ، تمكنت من الفرار تجاه يافا وواصلت سيرها حتى بلغت أسوار المدينة (٣) .

وأمام تلك المصائب العديدة التى حلت بالجيش الصليبى ، لمس الملك بلدوين مدى الانهيار الذى ظهر على بقية المقاتلين اللاتين الموجودين تحت قيادته فى القسمين الرابع والخامس ، فخشى الاستمرار فى المعركة بهذه الصورة ، واضطر إلى الاجتماع بمقاتليه ، وخطب فيهم خطبة حماسية أخرى أسوة بما فعل من قبل حثهم فيها على ضرورة استئناف القتال بنفس الحماسة والقدرة التى كانوا عليها عند بدء المعركة ، فزادهم ايماناً ورغبة فى الانتصار ثم خر الملك ساجداً أمام الصليب المقدس ، الذى كان يحمله فى هذا الوقت الأسقف جيرارد فى مقدمة الصفوف ، معترفاً جهراً بذنوبه أمام الأسقف.

---

(١) Albert d'Aix, op. cit., p. 549; Flucher of chartres op. cit., 157; cf. also: : Grousset; op. cit., I.p. 226.

(٢) Flucher of chartes, op.cit; , 159 .

(٣) Ibid.

فزاد هذا الموقف من شجاعة المقاتلين وأخذوا يهللون للنصر. ثم امتطى بلدوين صهوة جواده العربي الأصل المسمى "La Gazelle" وسار من وراءه فرسان بيت المقدس (١) . وابتدأ الهجوم العنيف من كلا الطرفين لدرجة أن صليل ضربات السيوف كان يسمع من مسافة بعيدة . وقد شعر المسلمون بالتغير الكبير والمفاجىء الذى ظهر بوضوح على الصليبيين مما أثار دهشتهم . فبعد أن كانوا فى اليوم الأسبق منهارين يائسين فى حربهم ، والقلق باد على وجوههم متخذين من الهرب طريقاً لهم ، أصبحوا يقاتلون بجرأة كبيرة(٢) . وقد حاول المسلمون أكثر من مرة تحطيم هذه الظاهرة التى بدت عليهم . فتقدم أحد الأمراء المصريين بسرعة فائقة من ناحية الأسقف جيرارد محاولا قتله والاستيلاء على الصليب المقدس الذى كان يحمله . ولكن مثيت هذه المحاولة بالفشل وانتهى بقتل هذا الأمير . فأقدم أمير آخر من فوق جواده بمحاولة جديدة تهدف الهجوم على الملك بلدوين واغتياله ، ولكن كانت ضربات هذا الملك أسرع منه فأصابته فى مقتل وسقط من فوق جواده (٣) .

وأمام هذا الوضع الجديد الذى طرأ على المعركة والذى رجحت فيه كفة الصليبيين ، لم يتمكن المصريون من تحقيق انتصارات تذكر فاضطروا إلى الانسحاب . فاتجه البعض ناحية عسقلان تاركين كل ما يملكون من مؤن وأسلحة وذخائر (٤) ، خاصة بعد أن شاع الخبر بينهم بموت قائدهم سعد الدولة الطواشى(٥) بينما اتجه البعض الآخر ناحية يافا لمحاصرتها منهزين

---

(١) Grousset, op cit., I, p. 226.

(٢) Gotfridi, op. cit., v.p. 506.

(٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 551; cf. also : Grousset op. cit., I, pp. 226 — 227.

(٤) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C, —H. occ. V, p. 567; Gotfridi, op. cit., V, p. 507; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 178.

(٥) Grousset, op. cit., I, p. 227.

فرصة انشغال القوات الصليبية فى مطاردة فلول المصريين المتجهين ناحية عسقلان (١) .

وجدير بالذكر ، أن بعض المؤرخين المسلمين أجمعوا على أن مقتله لم يكن بسبب احدى ضربات اعدائه ، وانما كان ناتجاً عن وقوعه من فوق جواده فبعدأن انكسرت ميمنة جيشه ثم ميسرته تبقى هذا الأمير فى نفر يسير من عساكره فى القلب . وعندما كان يرمح بجواده وسط المعركة ، كبا به الجواد وسقط عنه إلى الأرض فخر صريعا (٢).

ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن المنجمين كانوا قد تنبأوا بموت سعد الدولة بهذه الطريقة ؛ ولهذا السبب كان يحذر دائماً من ركوب الخيل ، حتى أنه لما تولى أمر بيروت كانت أرضها مفروشة بالبلاط ، فقام بخلعه خوفاً من أن يزلق به فرسه أو يعثر . ولكن الحذر لم يمنع القدر المكتوب له ، فمات مما كان يحذره ويخشاه (٣) .

كيفما كان الأمر ، أصبح ميدان القتال ، بعد انسحاب المصريين مغطى بكثير من أدوات الحرب من الدروع والتروس والخناجر والأقواس وحقائب السهام وأنواع كثيرة من الأسلحة الأخرى . فضلا عن كثرة جثث الموتى من كلا الجانبين الاسلامى واللاتينى ، وما نجم عن ذلك من صبغ الأرض بلون الدماء . وقدر المؤرخون شهداء هذه المعركة من المصريين ما يقرب من خمسة آلاف فارس وراجل ، خلاف عدد كبير من الأسرى .

---

(١) Fulcher of Ghartres, op. cit.,p. 159.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ، العينى : عقد الجمان ، ج ٢٠ ، لوحة ١٢٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ ، ص ٢٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٢ ، ومن المراجع الأجنبية انظر ما يلى :

Mattew d'Edesse, cf. R. C.H. — H. Doc. Arm., p. 61 cf. also : Grousst, op.cit., I, p. 227.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ ، ص ٣٦٤ .

بينما لم يفقد الفرنج سوى ثلاثمائة من المشاه والفرسان (١)

وبعد أن اتجه المصريون ناحية عسقلان ، طاردتهم القوات الصليبية حتى أسوار هذه المدينة . وهناك اشتبك الطرفان فى معركة رجحت فيها كفة الجيش المصرى ، حيث تلقى الصليبيون ضربة قاصمة أنستهم تلك الانتصارات التى حققوها فى معركتهم السابقة عند مدينة الرملة . ونتج عن هذه المعركة أن فقدوا عدداً كبيراً من مؤخرة جيشهم ومن أفراد الجناح الأيمن منه . فضلا عما فقدوه من تلك الغنائم والأسلاب التى كانوا قد استولوا عليها من المصريين فى المعركة السابقة (٢) . فأضطر الملك بلدوين أن ينسحب للوراء على رأس جيشه ، واتجه ناحية يافا ولكن كان المصريون الذين اتجهوا لحصار يافا قد عملوا على ترويج الاشاعات بانتصارهم الكبير على الصليبيين وتدميرهم للجيش الصليبى واغتيال ملكهم . فما أن علم أهل مدينة يافا بهذا الأمر حتى دب الفزع والخوف فى قلوبهم وسادهم الحزن (٣) . وعقدوا اجتماعاً فيما بينهم للتفكير فى الوسيلة التى تنقذهم مما هم فيه . فقرروا الكتابة إلى تنكريد صاحب انطاكية ، وأوضحوا له كل شيء ، وطلبوا منه باسم المسيح ومن أجل نصرة المسيحية ضرورة الحضور لفك حصار المسلمين لهم والانتقام لما حدث بالجيش الصليبى على أيدى المصريين . ولكن أثناء انتظارهم رد صاحب انطاكية جاءتهم الأخبار بأن الملك بلدوين قادم على رأس قواته تجاه المدينة ، فعادت الفرحة إلى قلوبهم وخرجوا لاستقباله . (٤) . أما بالنسبة للمصريين المحاصرين لمدينة يافا ، فعندما علموا من بعد جنود الفرنج القادمين ناحيتهم ، ظنوا فى بداية الأمر

---

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 159; Anonymous Gesta Francorum, cf. R.H.C. — H. occ., III, p. 529; Gotfridi, op. cit., p. 507.

(٢) Flucherof Chartres op. cit., pp. 159 — 160.

(٣) Ibid, p. 160; Anonymous, Historia Nicaenval, cf R.H.C. — H. occ., V p. 178.

(٤) Gotfridi, op. cit., p. 507.

ويمكن الرجوع إلى نص هذا الخطاب فى كتاب فوشية دى شارتر ص ١٦٢ .

أنهم باقى زملائهم الذين لم يتمكنوا من اللحاق بهم وأنهم جاؤا لمساعدتهم فى حصار المدينة . وعلى ذلك لم يعروهم أى اهتمام . ولم يتوقعوا منهم الغدر وأى مكروه (١) . وعلى العكس من ذلك كان موقف الفرنجة ، فكانوا على علم بأمر حصار المصريين للمدينة . ولذا سرعان ما انقضوا عليهم فجأة فحدث الهرج والمرج فى صفوف المصريين ، وتشتتت قواتهم ، ولم يتمكنوا من السيطرة على زمام الأمور ، فلاذوا بالفرار متفرقين كل منهم فى ناحية . فلحقهم الصليبيون إلى مسافة قصيرة ، وقضوا على عدد كبير منهم . ولم يواصلوا مطاردتهم حيث كانوا يعانون من شدة التعب وعناء المعارك السابقة (٢) .

وعندما دخل الملك بلدوين مدينة يافا ، وعلم بأمر الرسالة التى وجهت إلى تنكريد ، بعث اليه بمندوب من قبله يخبره بحقيقة الأمر (٣) . وقد ظل بلدوين بالمدينة يوماً واحداً نال خلاله قسطاً من الراحة ، ثم غادرها فى اليوم التالى متجهاً ناحية بيت المقدس . وهناك قابله رجال الدين وكل أهالى المدينة بالفرح والسرور ، وقدموا له التهانى اللازمة . وبعد ذلك اتجه الملك الصليبى إلى القبر المقدس حيث أدى الصلاة هناك . ثم وهب كل ما خمعه من الأسلاب والغنائم التى حصل عليها من معاركه السابقة إلى مستشفى بيت المقدس للصرف منها على الفقراء والمرضى (٤) . وعلى هذا النحو تكون قد انتهت الجولة الأولى من الجولات الحربية التى قامت بين الصليبيين من ناحية والجيش المصرى من ناحية أخرى عند مدينة الرملة .

---

(١) Ibid*, p. 508; Fulcher of Chartres, op. cit. p. 167.

(٢) Gotfridi, op. cit. Loc. cit.

(٣) Ibid.

(٤) Albert d'Aix, op. cit., p. 553.

ولكن كان لهزيمة المصريين فى هذه المعركة أكبر الأثر على نفس الوزير الفاطمى الأفضل ، فلم يستسلم بسهولة لما حدث ، وانما أصر على خروج حملة أخرى ليلتقم بها من الفرنج تعويضاً للكارثة التى أصابت جيشه ، ولتحقيق ما فشلت فيه الحملة الأولى من استعادة المسلمين لمدينة بيت المقدس مرة ثانية . فأعد جيشاً كبيراً بقيادة ابنه شرف المعالى بلغ ما يقرب من عشرين ألف فارس وعشرة آلاف راجل ، فضلا عن الاعداد الغفيرة المخصصة لتوجيه كافة الدواب المحملة بالمؤن لسد حاجات المحاربين طوال فترة الحرب ، هذا خلاف أولئك المسئولين عن تجهيز المؤن والأطعمة وتقديمها للمقاتلين . فكان كل منهم يحمل عصا ورمحاً للدفاع عن نفسه (١) . وكان هذا الجيش يتضمن كثيراً من العناصر السودانية والعربية الموجودة فى المنطقة (٢) وتجمعت القوات المحاربة فى عسقلان فى منتصف مايو من عام ١١٠٢ م/ رجب ٤٩٥ هـ . ومن هناك سلكت نفس الطريق الذى أتبعته فى الحملة السابقة حتى وصلت إلى الرملة فى اليوم التالى وعسكرت أمام المدينة حيث كان بوسعها تهديد كل من يافا وبيت المقدس (٣) .

ويشير كثير من الكتاب الغربيين المعاصرين لهذه الفترة إلى أن قوات الجيش المصرى كانت سبباً فى اتلاف المحصولات الزراعية المحيطة بالمنطقة عند اجتيازها الطريق الموصل من عسقلان إلى الرملة (٤) .

---

(١) Flucher of chartres, op. cit., p. 163; Anonymous, Historia Herosolimitana, IV, p. 561.

(٢) العينى : عقد الجمان ، ج ٢٠ ، لوحة ١٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ ، ص ٣٦٤
انظر أيضاً : Grousset,o p. cit, I, p. 229

(٣) Flucher of chartres, op. cit.; Loc. cit. Anonymous, Li Estoire de Jerusalem, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 641; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H occ, IV, p. 561; cf. also :Grousset, op. cit., Loc.cit

(٤) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. H. occ, IV, p. 561; Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem III, p. 531, Gotfridi, op. cit., 509

ولكننا لاندرى تماماً حقيقة هذا الأمر ، إذ سكتت المصادر العربية سكوتاً تاماً عن هذا الموضوع . ولذا لا يمكن القطع ان كان هذا التخريب مقصوداً وبشكل جزءاً من الخطة الحربية المرسومة من قبل المصريين من عدمه ، حيث إذا تم حصار المدينة وشددت الهجمات عليها يحرم الأهالى عند نفاذ مؤونتهم من الاستفادة من هذه المحصولات فيضطروا للتسليم . أو ربما يكون هذا الاتلاف قد جاء عفواً بدون قصد ، لأن الطريق المتضمن تلك الرقعة الزراعية والذى تلف محصوله هو الطريق الوحيد الموصل بين عسقلان والرملة . فلم يكن أمام الجيش الا أن يعبر من هذا الطريق . ولكن نظراً لضيق مساحته لم يتسع لكثرة الاعداد التى يتكون منها ، فكان من الضرورى السير الى الأرض المزروعة مما أدى إلى اتلاف المحصولات الزراعية وفق ما حدث .

مهما كان الأمر ، عندما وصل المصريون إلى مدينة الرملة لم يكن بها الا حامية صغيرة لم تزد عن خمسين فارساً كان الملك الصليبى بلدوين قد تركهم لحمايتها . إذ لم يتوقع أية هجمات أخرى للمصريين فى فترة متقاربة بعد هزيمتهم الكبيرة فى المرة السابقة . ولذا كان الأمر سهلا على الجيش المصرى فى حصاره للمدينة ، ولم يجد مقاومة كبيرة . وكانت الخطة تعتمد على تشديد الهجمات على المدينة وتصويب الضربات الشديدة اليها . فسهل لهم هذا سرعة الاستيلاء عليها . وبعد ذلك اتجهوا إلى كنيسة القديس جورج الواقعة على مسافة كيلو متر واحد من مدينة الرملة ، واستولوا على ممتلكاتها من كنوز ونفائس ثم أشعلوا فيها النيران . وكان فى ذلك الوقت روبرت مطران المدينة يؤدى شعائر الصلاة بداخلها ، فلما شعر بما أصاب الكنيسة فر هارباً مما أحدث الفزع والاضطراب بين صفوف المسيحيين (١) .

---

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 163; Alberid'Aix, op. cit., p.591 Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. H. ecc. IV, p. 561.

وهناك رأيان مختلفان حول موقف مطران المدينة حيال الهجوم المصرى عليها . فى الوقت الذى يشير فيه بعض المؤرخين المعاصرين لأحداث هذه الفترة الزمنية ، ومنهم فوشيه دى شارتر ، بأن المطران عقد اجتماعاً مع كبار الأهالى للتشاور فيما أصاب المدينة من جراء استيلاء المسلمين عليها . وانتهوا فيه إلى ضرورة ارسال مندوب عنهم إلى الملك اللاتينى بلدوين فى يافا لطلب النجدة (١) . هذا ، بينما يذكر البرت ديكس ، وهو أيضاً مؤرخ معاصر لأحداث هذه الفترة التى نحن بصددها ، ان المطران تمكن من الفرار مع عدد من رفاقه لاخبار الملك بما حدث ، ولطلب نجدة صليبية لانقاذ مدينة الرملة (٢) .

وأمام هذا التعارض فى القول نقف حائرين ، خاصة وان هذين الرأيين صادران من مؤرخين معاصرين لتلك الأحداث . وفى اعتقادنا ان الرأى الأول له نصيب أكبر من الصحة والصدق ، لأن الحصار المحكم المفروض على المدينة يحول دون التفكير فى الهرب الجماعى وفق ما أوضح المؤرخ البرت ديكس . فهذا الهرب سيكون بمثابة مخاطرة غير مضمونة النتائج ، ويتغلب فيه جانب الخسارة والفشل . كما أن خوف المسيحيين الموجودين داخل المدينة على حياة الأسقف يجعلهم يمنعونه من المجازفة والخروج . ويتطوع أحدهم للفرار لطلب النجدة من الملك الصليبى . كما أن وجود أسقف المدينة بجوار الأهالى له أهمية كبرى فى رفع روحهم المعنوية وحثهم على ضرورة الصمود والمقاومة لحين مجيء النجدة الصليبية . فليس من المعقول والأمر هكذا أن يتخلى عن هذه المهمة ويفكر فى الفرار لانجاز مهمة أخرى يمكن أن يقوم بها غيره من أهالى المدينة .

ومهما كان هذا الرأى أو ذاك ، فكان الملك بلدوين متواجداً فى يافا

---

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 164; Anonymous, op. cit. Loc.cit

(٢) Albert d'Aix, op. cit., p. 591.

أثناء تحركات المصريين وحصارهم لمدينة الرملة . فعندما علم بذلك أسرع فى الاجتماع بكبار قادته وشاورهم فى هذا الأمر (١) . وانتهى الرأى باصراره على الخروج على رأس مائتين من فرسانه غير مبال بالحذر الذى اعتاد عليه طوال معاركه السابقة ، لو ينصح الناصحين له بعدم الخروج مع هذا العدد القليل من قواته والانتظار حتى تنضم اليه فرسان الجهات المجاورة . ويبدو أن نشوة الانتصارات التى أحرزها على القوات المصرية فى المرة السابقة جعلته يصل إلى درجة الغرور معتقداً فى ضرورة انتصاره هذه المرة أيضاً بغض النظر عن حجم القوات التى معه (٢) .

وقد أبدى بعض المؤرخين اللاتين ومن بينهم جوتفريدى ، دهشتهم الشديدة لتهور الملك وسرعة اندفاعه للخروج إلى الرملة مما أدى إلى اغفاله لأول مرة اصطحاب الصليب المقدس معه وهو البركة التى يستمد منها سائر الجيش القوة والشجاعة والثقة فى النفس . فسادت روح التشاؤم بين سائر المسيحيين المقاتلين (٣) .

وجدير بالذكر ، أنه كان بامكان الملك الصليبى إذ التزم الهدوء والتريث وأخذ بمشورة ونصح الآخرين ، ان يخرج على رأس آلاف من المقاتلين والفرسان الفرنج ، ويتجنب تلك الخسائر الفادحة التى أصابت جيشه وفق ما سيتضح فيما بعد ، خاصة إذا علمنا أنه كان متواجداً فى يافا فى هذه الفترة ما يزيد عن عشرة آلاف مسيحى بينهم عدد كبير جداً من أمهر الفرسان الغربيين كانوا قد أدوا مراسم الحج وفى انتظار هدوء الجو والرياح ليتمكنوا من الأبحار والعودة إلى بلادهم . ولكن الملك رفض ضمهم إلى جيشه ،

---

(١) Ekkehardi, op. cit., V, p. 33.

(٢) Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Guillaume de Tyr, Ahistory of Deeds Done Beyond the Sea, P, 443.

(٣) Gotfridi, op. cit., p. 510.

والمكثى بمن معه من الفرسان . بل رفض أيضاً استدعاء أى من الفرسان الموجودين فى المدن المجاورة له ، وخرج منهوراً الى اتجاه القوات المصرية (١) ولكن رغم هذا أدرك بعض البلاء المنتظرين بمدينة يافا هدوء الجو لرحيلهم الى بلادهم ، ضرورة تأييدهم ومؤازرتهم للجيش الصليبى المتجه ناحية الرملة فقرروا اللحاق به . وفى الحال كرسوا جهودهم من أجل الحصول على كثير من الخيول والأسلحة من الأصدقاء والمعارف فى المناطق المجاورة (٢)

وعندما وصل الصليبيون إلى سهل الرملة أصابهم الذهول لكثرة عدد القوات المصرية الموجودة فى ميدان القتال . وأدركوا تماماً عدم اتاحة الفرصة لهم للتراجع والانسحاب ، وان المعركة بين الطرفين ستكون غير متكافئة وسينتهى بهم الأمر بالفناء والدمار وجلب العار والفضيحة على سائر المسيحيين وشعروا عند ذاك باليأس الشديد ، كما أدركوا تماماً أن النصر بعيد عنهم ما لم تصلهم نجدة صليبية سريعة . ولم يكن هناك فى الأفق ما يشير إلى تحقيق هذا الحلم . فالقوات المصرية تحاصر المكان تماماً وتقف حاجزاً دون وصول أى امدادات فرنجية إلى ميدان القتال (٣) .

وأمام هذا الوضع ، حاول الملك بلدوين أن يهدىء من روع الصليبيين وأن يعمل على رفع روحهم المعنوية وحثهم على القتال . فتحدث اليهم فى كلمات موجزة قائلا :

أنتم ياجنود المسيح ، ياأصدقائى ، اننا أمام الأمر الواقع

---

(١) Flucher of Chartres, op. cit; p. 164; Anonymous, Li Estoire de Jerusalem, cf.R.H.C. — H. occ., V, p. 641, Cf,,also : Campbel, The Crusades, p. 165.

(٢) Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Guillaume deTyr, op. cit,, I, p. 443.

(٣) Ibid, Anony mous Historia Herosolimitana, cf, R.H.C. — H. occ., IV, p. 561. cf. also : Setton, op. cit., I, p. 364. Grousset, op. cit. I, p. 230.

إذ ليس بوسعنا التراجع ولابد من الاشتباك مع عدونا . وعليكم أن تحاربوا بكل حماسة وشجاعة وقوة، حتى لا تظهروا بمظهر الخونة الذين تقاعسوا عن خدمة المسيح ونصرته ونصرة المسيحية . وثقوا ان الرب سوف يؤيد كم بقوته . ويجب الا يفكر احدكم فى الهرب لأنه لا جدوى من ورائه ، ولابد وأن نعيش بكرامتنا مرفوعى الرأس أو نموت جميعاً من أجل نصرة المسيحية . (١)

ولاشك أن هذه الكلمات الموجزة التى تعبر بوضوح عن مدى سيطرة الكنيسة اللاتينية على مصائر الناس ومقدراتهم فى الغرب آنذاك ، كان لها صدى كبير فى نفوس المقاتلين الفرنج مما زادهم ثقة وشجاعة . ولكن لم يكن لهذا أى أثر يذكر أمام تلك الاعداد الغفيرة من أفراد الجيش المصرى ، هذا فضلا عما تميز به القادة المصريون من الذكاء والفطنة والخبرة فى فن الحرب والقتال مما جعلهم يدركون تماماً حالة الفزع والارتباك التى سيطرت على الجيش اللاتينى . كما لاحظوا عدم تنظيم صفوفهم وعدم اكتمال فرق المشاة والفرسان كعادتهم فى المعارك السابقة التى خاضوها ضدهم . كل هذا أوحى للمصريين بتأكيد انتصارهم والانتقام من الهزيمة السابقة التى لحقت بهم فى العام الأسبق (٢) .

بدأت المعركة بين الطرفين فى ١٧ مايو ١١٠٢ م/ ١٨ رجب ٤٩٥ هـ وكانت شديدة الضراوة . وفى بداية الأمر نجح الفرنجة ، رغم قلة عددهم فى توجيه الضربات العنيفة للقوات المصرية وفى تشتيت صفوفها . ولكن هذا لم يؤثر على تلك الاعداد الغفيرة التى تكون منها الجيش المصرى ، حتى ان

---

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 562.

(٢) Ibid; Guillaume de Tyr, op. cit., I, pp. 443 — 444

اليأس استبد بالملك الصليبي وسائر المقاتلين معه ، وأدركوا أنهم لن يحققوا أي تقدم ملحوظ خاصة وانه لم يتبق منهم سوى ما يقرب من خمسين مقاتلا (١) فاضطر الملك بلدوين ومن معه إلى التقهقر ناحية حصن الرملة ، الذى كان الذى كان مازال تحت أيدى الصليبيين ونجحوا فى الدخول فيه والاحتماء بأسواره . وقد فطن المسلمون لهذا ، وكان باستطاعتهم اقتحام الحصن والاستيلاء عليه بدون عناء والقبض على غريمهم الملك بلدوين وباقى أفراد جيشه . ولكن حال غروب الشمس دون تنفيذ مهمتهم التى أرجأوا تنفيذها إلى صباح اليوم التالى . واكتفوا بتشديد الحصار حول المدينة ، الأمر الذى جعل الملك الصليبي وباقى أفراد قواته يفقدون كل أمل فى أنقاذهم مما هم فيه ، وأخذوا ينتظرون مصيرهم التعس فى القبض عليهم عند حلول الصباح (٢) ولكن عز على الملك أن يكون فى هذا الموقف الصعب ، مؤثراً الموت فى أى مكان آخر عن الاستسلام للمسلمين . فأتجه تفكيره للهرب مختفياً فى أحضان الليل (٣) . وكان الحظ حليفه فى تحقيق هذا . فى أثناء دراسته لفكرة الهرب أتاه أحد شيوخ العرب إلى باب الحصن طالباً مقابلته شخصياً . وعند ما تم ذلك أخبره بأن المصريين سوف يبدأون الهجوم على الحصن عند بزوغ الفجر وعرض عليه مساعدته على الهرب ؛ فاستجاب الملك له . ورغم ما أبداه من أسف لفراق رفاقه ، الا أنه رأى أن بقاء المملكة متوقف على بقائه على قيد الحياة . وقد أدرك بلدوين أن الموت والاسر طريقهما واحد ، فى كلتا الحالتين سوف يجلبان الخراب على المملكة . ولذا فلابد وأن يقدم على مغامرة الهرب ففيها أمل كبير للنجاح ( ) فتسلل هو ومائة وثلاثة من

---

(١) Albert d'Aix, op. cit,, p. 591.

(٢) Ibid, Flucher of chartres, op. cit., p.168; Guillaume de tyr,op. cit.,I, p. 445; Anonymous, Historia dc Nicaenval, cf. R.H.C — H. occ., V, p. 179.

(٣) Flucher of chartres, op. cit., p. 169.

(٤) Guillaume de Tyr, op. cit. Loc. cit., Mattew d'Edesse, op. cit,, p. 61; cf. also Grousset, op. cit,, I, p. 231, Runciman, op. cit.,II, p. 72; Besaht, op. cit., p, 245; Campbel, op; cit., p. 166.

أتباعه واجتازوا بخيولهم خطوط المسلمين . وكان يصحبهم هذا الاعرابي بهدف حمايتهم وتوصيلهم إلى منطقة آمنة وبعيدة عن عيون المصريين . ولكن بعض الفرسان المصريين تبعوا الملك ورفاقه ، فطاردوهم ، وتمكنوا من اصابة البعض وأسر البعض الآخر . أما الملك فقد نجح في الاختفاء في جيوب احدى الجبال المحيطة بالمنطقة ..ورغم عمليات التفتيش الدقيقة والعديدة التي قام بها أفراد الجيش المصري للعثور على الملك ، الا أنهم فشلوا في القبض عليه (١) . وكان بلدوين قد اتخذ من ظلمات الليل ستاراً يختفي وراءه ويواصل من خلاله مسيرته . وعندما حل الصباح اتخذ من الجبال مستقراً له ، وهكذا . وقد عانى خلال هذه المرحلة معاناة شديدة من الجوع والعطش والتعب الجسماني والنفسي . وظل هكذا حتى وصل إلى مدينة أرسوف في ١٩ مايو ١١٠٢ م/ ٢٠ رجب ٤٩٥ هـ (٢) . وهناك استقبله أهالي المدينة بعد أن تأكدوا من كذب الاشاعات التي انتشرت حول مقتله . وتم علاجه

=ويرجع المؤرخون سبب مساعدة هذا الاعرابي للملك بلدوين إلى الجميل الذي كان الملك بلدوين قد فعله مع زوجة الأعرابي . ففي أوائل ربيع عام ١١٠١ م / ٤٩٤ هـ حدث أن انقض الجيش الصليبي بقيادة بلدوين على احدى القبائل العربية الذين ليلا في مخيماتها ، بعد اجتيازها وادي نهر الأردن سالماً أياها كل ما تملك ، فضلا عن وقع عدد وقع في الأسر من النساء والأطفال بينما لقي معظم الرجال مصرعهم . وكان من بين الأسرى زوجة هذا الاعرابي وكانت على وشك الوضع فلما علم بلدوين بحالتها أخذته الشفقة والرحمة بها فأطلق سراحها مع جاريتها وأطلق لها ناقتين وقدراً كبيراً من المؤن والشراب. فوضعت وليدها سليما على جانب الطريق . ولم يلبث زوجها أن عثر عليها فاشتد تأثره بالملك بلدوين وأسرع للحاق به ليشكره . ويعده بأنه سوف يرد له هذا الجميل . وشاءت الظروف أن ينفذ الاعرابي وعده وينقذ الملك من محنته التي كان فيها .

(١) Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C. — H. occ. V, p. 179; Guillaume de tyr, op. cit., I, pp. 445—446; cf. also : Grousset, op.cit., I, p. 232.

(٢) Albert d'Aix, op. cit.; p. 593; Anonymous, Li Estoire de Jeru-salem, cf. R.H.C. — H. occ., V, P. 647; Gotfridi, op.cit., p. 510.

من الجراح التى أصيب بها ثم تركوه يأخذ قسطاً وافراً من الراحة (١)

وجدير بالذكر ، ان المصادر الاسلامية ذكرت أن الملك بلدوين بعد أن هرب اختفى من أعين المسلمين فى اجمة قصب ، وعندما أدركه المسلمون اضطروا إلى حرق تلك الاجمة للتخلص منه فوصلت اليه النار وأصابت بعض أجزاء جسده . ولكنه مع ذلك تمكن من الفرار إلى يافا (٢) .

وبالتحليل الجامع المانع بين الروايتين الاسلامية والصليبية ، لا نجد تعارضاً بيناً فيهما وانما يمكن اعتبارهما مكملتين لبعضهما . ويلاحظ فى هذا الصدد أن كل فريق من المؤرخين قد نحز لبنى جلدته . الأمر الذى ترتب عليه وجود مثل هذا الاتصال فى هاتين الروايتين . فاللاتين يريدون أخفاء ذلك التشويه الجسمانى الذى ربما يكون قد أصاب ملكهم حتى لا ينقص هذا من شخصيته وقوته أمام اتباعه من ناحية ، وأمام المسلمين من ناحية أخرى . أما المسلمين فلعلهم أردوا بذكر الحقائق التشهير بالملك اللاتينى مما يهون من شأنه فى عصر احتدم فيه الصراع بين الطرفين الصليبى والاسلامى . ويوضح مدى اذلاله أثناء حصار النيران له فى أجمة القصب . وعلى ذلك لا يمكن انكار أى من الروايتين . بل يمكن أن نخرج من وراء كل هذا باجتهاد اهله يمثل شيئاً من الحقيقة . وخلاصته أن الملك الفرنجى بعد هروبه اتجه إلى أجمة قصب للاختفاء فيها ، فلما استشعر المصريون بهذا أشعلوا النيران فيها فأصيب الملك ببعض التشوهات والجروح . ولكنه نجح فى انقاذ نفسه بالفرار من هذه المنطقة متخذاً من الجبال مستقراً له حتى وصل إلى أرسوف

---

(١) Albert d'Aix, op. cit. Loc. cit; Gotfridi, op. cit. Loc. cit., Fluches of Chartres, op. cit., p. 170; Guillaume de Tyr, op. cit., I, p. 446. Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium. Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ, III, p. 533.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ق ١ ص ١

وهناك تم علاجه من الجراح التى أصيب بها وفق ما ذكر المؤرخون اللاتين .

كيفما كان الأمر . تمكن المصريون فى صباح اليوم التالى من شن هجوم عنيف ضد القوات الصليبية المحاصرة داخل حصن الرملة ، وانتهى الأمر بسقوط الحصن فى أيدى المسلمين . واضطر الصليبيون إلى الالتجاء إلى برج الحصن للاحتماء بداخله باعتباره مركز الدفاع الوحيد والرئيسى لديهم فى ذلك الوقت . فحاول المصريون تسلق البرج وقتال من بداخله ، ولكن باءت محاولاتهم بالفشل أمام ضربات العدو التى كانت توجه اليهم من أعلى البرج . ولذلك تحول تفكير القادة المصريين إلى اتباع خطة جديدة تعتمد على اشعال النيران فى البرج . ونجحت خطتهم ، اذ أختنق عدد كبير من الصليبيين ، ووقع الآخرون فى الاسر . ولم ينج منهم سوى ثلاثة فرسان تمكنوا من الهرب . والوصول إلى القدس (١) وعند وصولهم اعلنوا نبأ هزيمتهم ، فأثاروا الرعب والاضطراب فى قلوب المسيحيين . وساد الحزن شتى أنحاء المملكة اللاتينية . وأعلن الحداد حتى يتأكدوا من سلامة ملكهم الذى لم تكن أخبار نجاته قد وصلت بعد إلى أى من مدن المملكة (١)

ولم يكتف المصريون بما أحرزوه من نصر على الصليبيين ، وانما أرادوا مواصلة انتصاراتهم فى التقدم إلى يافا بهدف استعادتها منتهزين فرصة حماسهم وروحهم المعنوية المرتفعة . وبالفعل وصلوا هذه المدينة وحاصروها براً وبحراً محاولين نشر خبر انتصارهم واضعاف الروح المعنوية لدى الأهالى . فأدعوا كذباً موت مليكهم ، ولكى يؤكدوا مصداق هذا الخبر قاموا بقطع رأس احدى جثث القتلى الصليبيين فى المعركة السابقة ، وكان وجه الشبه كبيراً بينها وبين الملك بلدوين ، والقوها وراء أسوار المدينة مدعين أنها

---

(١) Albert d'Aix, op. cit; p. 594; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 563. cf. also Setton, op. cit.,I, p. 364; Grousset, op. cit., I, p. 233.

(٢) Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C.H. occ., III, p. 535.

رأس ملكهم . فحدث ما توقعه المصريون من انخفاض مقدرة الاهالى فى المقاومة وانهيار معنوياتهم ، وحدث الهرج والمرج بين سائر اهالى المدينة (١)

وفى ٢٠ مايو ١١٠٢ م/ ٢١ رجب ٤٩٥ هـ خرج الملك بلدوين على رأس عدد من صفوة الفرسان الصليبيين من أرسوف ، وركب احدى السفن الفرنجية المتجهة إلى يافا محاولا اختراق الحصار البحرى الذى فرضه المصريون عليها .

وعند الاقتراب من المدينة أمر الملك بتعليق العلم الملكى على سارية المركب ليطمئن الأهالى بأنه مازال على قيد الحياة . ولكن عند ملمح رجال الأسطول المصرى المحاصر للمدينة سارية المركب وتنبهوا إلى حقيقة الأمر ، أسرعت السفن المصرية بالتحرك تجاه مراكب الصليبيين للانقضاض عليها . ولكن كانت الأمواج عالية والعاصفة على أشدها ، مما أعاق خطة المصريين وانتهى الأمر بالاحاطة بمراكبهم ونجاة المركب المتواجد عليها الملك بلدوين ودخولها ميناء يافا ، فعم الفرح والسرور بين الأهالى وارتفعت معنوياتهم لسلامة ملكهم (٢) .

وكان بلدوين يرغب فى استدعاء بعض الفرنج المتواجدين فى مدينة بيت المقدس وفى غيرها من اجزاء المملكة اللاتينية للحضور اليه فى يافا بهدف فك الحصار البرى والبحرى المفروض على المدينة من قبل المصريين . فتطوع أحد الشبان المسيحيين السوريين فى حمل هذه الرسالة وتوصيلها إلى ذوى الأمر . وقدأتخذ هذا الشاب من الليل ستاراً يحقق من ورائه مأموريته ، منتهزاً فرصة الليالى الغير قمرية ومستخدماً الطرق

---

(١) Albert d'Aix, op. cit., p. 595; cf. also Grousset, op. cit.,II, p. 231.

(٢) Ibid Runciman, op. cit., II, p. 79.

الملتوية التى كان يعرفها . وقد ساعده هذا إلى حد كبير فى الوصول إلى بيت المقدس دون أن تراه أعين المسلمين . وهناك طمأن الناس على سلامة الملك ، فعم الفرح وزال الحزن ورفع الحداد . وسرعان ما تكونت فرقة من أفضل فرسان الفرنج الموجودين فى هذا الوقت بلغ قوامها أربعمائة وثمانين فارساً ، وأبحروا إلى أرسوف ومنها إلى يافا . وعندما أقتربوا شاهدوا الحصار البحرى المصرى المفروض عليها ، فاضطروا إلى القاء كل ما معهم فى البحر حتى لا يستفيد به المصريون إذا ما تمكنوا من الاستيلاء على مراكبهم . مراكبهم . ثم اتخذوا من السباحة طريقاً يوصلهم إلى بر المدينة . وبالفعل وصلوا دون أن يصيبهم مكروها (١) وفى الايام الأخيرة من مايو ١١٠٢ ٪ أواخر رجب ٤٩٥ هـ وصل أسطول مسيحى مكون من مائتى قطعة بحرية أمام يافا يحمل عدداً كبيراً من الحجاج ، من بينهم صفوة من الفرسان الفرنسيين والانجليز والألمان . وقد تمكن هذا الأسطول من التغلب على الأسطول المصرى ، مما أجبره على العودة مسرعاً إلى عسقلان . ولعل هذا الأمر قد شجع الملك الصليبى على الخروج من يافا على رأس جيشه للقاء المصريين المعسكرين على بعد ثلاثة أميال من المدينة . ودارت معركة عنيفة أدت إلى انتصار الفرنجة وهرب المصريين ناحية عسقلان فى خلال الساعات الأولى من بدء المعركة (٢) . ونظراً لقلة عدد الصليبيين فانهم لم يلحقوا بهم وانما اكتفوا بما استولوا عليه من المعسكر الفاطمى من خيام وأدوات وجمال ومؤن ونقود . وبعد هذا النصر عاد بلدوين إلى القدس (٣) واضعاً حداً لنهاية أحداث معركة الرملة الثانية .

---

(١) Flucher of chartres, op. cit., p. 172; cf. also : Grousset, op. cit., I, p. 235.

(٢) Flucher of chartres, op. cit., Loc. cit., Albert d'Aix, op. cit., p. 596; cf. also : Grousset, op.cit. p. 236.

(٣) Flucher of chartres, op. cit. Ejoc. cit.; cf. also : Grousset, op.cit Loc. cit.

ولكن يبدو أن نشوة الانتصارات الكبيرة التي حققتها القوات المصرية على الجيش الصليبي في هذه المعركة ، جعلت الوزير الفاطمي الأفضل يصر على عدم التخلي عن فكرة أرسال حملة أخرى إلى الشام لطرد الصليبيين منه واستعادة القدس . وسرعان ماكون في أغسطس ١١٠٥م/ ذي الحجة ٤٩٨ هـ جيشاً كبيراً يتألف من خمسة آلاف مقاتل من الفرسان والمشاة المصريين والسودانيين بقيادة أبنه سناء الملك ، وذلك عدا قطع الأسطول البحري المصري (١) . ويبدو أن الوزير الفاطمي لم يكتف بهذا العدد الضخم من المقاتلين ، وأراد أن يضاعف من حجمه فاستعان بقوة الدماشقة لأنه كتب إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق يعرض عليه أن يعاونه في قتال المشرك بينهما ، فاستجاب طغتكين لهذا النداء وأمده بالف وثلاثمائة فارس من الأتراك ممن يجيدون رمي السهام (٢) . وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على وحدة النضال والتضامن الاسلامي ضد العدو المشرك ، خاصة وان هذا العمل يعد أول محاولة جادة يتعاون فيها المسلمون في كل من مصر والشام بهدف تحرير الأراضي المقدسة من براثن العدو الصليبي .

ولعل ما شجع الوزير الفاطمي الأفضل على خروج هذه الحملة في هذا الوقت بالذات هو علمه التام بخلو مدينة القدس من الحجاج ، فضلاً عن انشغال بعض الامارات الصليبية الأخرى بالمنازعات الداخلية والحروب الأهلية فيما بينها ، وخاصة تلك المنازعات القائمة بين بوهيموند صاحب

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٤ ، العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ لوحة ١٤٤ ومن المصادر والمراجع الأجنبية انظر ما يلي :

Flucher of chartres, op. cit. p. 182; Anonymous, Historia Herosolimitan cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 565; Grousset, op. cit., I, p. 246.

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١٤٨ ابن الاثير ، المصدر السابق جـ ١٠ ص ٣٩٤ العيني : المصدر السابق نفس الجزء واللوحة ، المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٥ وراجع ايضا

Flucher of chartres, op. cit. p. 183; Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem; cf. R.H.C. — H. occ., III, p. 53.9

انطاكية والامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين الأمر الذى يعرقل امكانية وصول مساعدات للقدس ، فيسهل ذلك على المسلمين مهمة انقضاضهم على الفرنج الموجودين بها واستعادتها . (١)

ويقول احد المؤرخين المجهولين الغربيين المعاصرين لتلك الفترة أن الوزير الفاطمى الأفضل طلب من قادته عدم العودة الا بعد القضاء على كل مسيحى الأراضى المقدسة وتدمير آثارهم المقدسة حتى لا يكون هناك أى سبب يجذب الحجاج الغربيين للحج والزيارة فى هذه المنطقة . ولضمان تنفيذ هذه التعليمات طلب الأفضل من قادة الجيش أن يقسموا له على أن ينفذوا ما طلبه منهم (٢) .

وعلى الرغم من أن هذه الحادثة قد رواها أحد مؤرخى الحروب الصليبية القدامى ، الا أننا يجب أن نتقبلها بشيء من الحذر لأكثر من سبب . أولا لأنه ليس من المستبعد أن يكون الأمر مدسوساً عن عمد من جانب هذا المؤرخ تعصباً لبنى جلدته للتقليل من شأن الوزير الفاطمى بوجه خاص والمسلمين بصفة عامة انتقاماً لذلك النصر الذى أحرزوه على الصليبيين فى معركة الرملة الثانية عام ١١٠٢ م/ ٤٩٥ هـ . فيلصقوا بهم صفة عدم احترامهم للديانة المسيحية ولشعور المسيحى العالم ، ويكون هذا بمثابة وصمة عار فى جبين الخلافة الفاطمية بصفتها زعيمة العالم الاسلامى آنذاك . وثانياً ، لأنه ليس من المعقول أن يتعدى هذا الوزير على احدى الديانات السماوية ويتجاهل شعور أولئك المسيحيين المتواجدين معه داخل حدود دولته الأمر الذى يجعلهم يثورون ضده ويتربصون به وربما يكون الأمر كله قد اقتصر على خطبة حماسية القاها الأفضل وسط صفوف القادة والمقاتلين ،

---

(١) Anonymous, op. cit., p. 540.

(٢) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ, IV, p. 565.

شأنها شأن تلك الخطب التى تقال فى مثل تلك المناسبات ، طالباً منهم الشدة والقسوة والتفانى فى الحرب ، ومما يعزز هذا الاحتمال ان الحادثة المشار اليها لم يرد ذكرها فى أى من المصادر العربية السنية . وبطبيعة الحال لو كانت هذه الواقعة صحيحة لكانت المصادر السنية أولى بالاشارة اليها لاتخاذها ذريعة للتشهير بهذا الرجل الشيعى والنكاية به ، فتكون نقطة سوداء فى تاريخ طائفة الشيعة كلها لكونها لم تحترم رمز الديانة المسيحية الذى يتمثل فى تلك الاثار المقدسة التى طالب الوزير الأفضل بتدميرها .

مهما يكن من أمر ، تجمعت القوات الاسلامية فى عسقلان ، وكانت خطتها تتلخص فى جذب قوات الفرنج إلى الرملة وابقائها هناك ، فى نفس الوقت الذى تتجه فيه بعض القوات الاسلامية إلى يافا لحصارها والاستيلاء عليها . وبعد ذلك تواصل القوات الاسلامية طريقها ناحية بيت المقدس لمحاصرتها (١) . وكان الملك بلدوين فى هذا الوقت متواجداً فى يافا . فلما بلغه أمر تحركات الجيش الفاطمى ، تملكه القلق خشية تفوق الفاطميين وانتصارهم واستيلاءهم على المدينة بسبب كثرة أعدادهم . ولذا أراد أن يقابل هذه التحركات بدهاء كبير . فتظاهر بعدم معرفته بنية المصريين ، وفى نفس الوقت أخذ يجهز قواته سراً معتمداً على كل رجل قادر على حمل السلاح ، كما عمل على ترميم أسوار المدينة وتعزيز تحصيناتها ، وخصص بعض من المقاتلين للدفاع عن أسوارها (٢) . وبعد أن انتهى من كل هذه الترتيبات خرج بجيشه متجهاً نحو عسقلان فى نفس الوقت الذى كان فيه الجيش الاسلامى قد تحرك من عسقلان تجاه يافا . وذلك دون أن يعلم كلا الطرفين بهذا الأمر ، فالتقيا فى مفترق الطريق عند الرملة (٣) . ومن هناك أرسل بلدوين مع مندوبه رسالة إلى أفريمار Evremar بطريق بيت المقدس

---

(١) Albert d'Aix, op. cit., p. 621.

(٢) Ibid, Anonymous, op. cit., p. 566.

(٣) Anonymous, op. cit., Loc. cit.

(١١٠٢ – ١١٠٨ م) يرجوه فيها هو وعامة الشعب بالتضرع إلى الله وكثرة الصلاة والصوم والزكاة ليكون هذا بمثابة فدية لنجدة الفرنج من أى هزيمة قد تلحق بهم ، وليمنحهم الله المساعدة والنصر على المسلمين . كما حمله مسئولية وعظ الناس وحثهم على ضرورة التطوع لحمل السلاح والاتجاه إلى ميدان القتال (١) . وعندما وصل المبعوث الملكى إلى المدينة المقدسة ، وعلم البطريرك بمضمون الرسالة ، أمر فى الحال بدق أجراس الكنائس معلناً ضرورة اجتماع كل الناس أمامه وقال لهم «ياأصدقائى . . . ياخدم المسيح ، لقد حضر هذا المبعوث من قبل الملك بلدوين ليخبرنا ، ان المعركة ستبدأ مع المسلمين عند الرملة . ومن أجل تحقيق النصر لابد من التضرع إلى الرب ، وكثرة الصلاة ، وأخبرنا هذا المندوب الملكى بأن الملك قد أخر بدء المعركة إلى الغد ليوافق هذا يوم عيد القيامة المجيد . وعلى ذلك فانى أطلب منكم السهر طوال هذه الليلة للصلاة والتعبد . واذهبوا فى الغد إلى الأماكن المقدسة بالمدينة حفاة الأقدام ، تاركين كل شهواتكم ، مذللين أنفسكم ، متضرعين إلى الله بكل تقوى وايمانا ، لينقذنا من أيدى الاعداء وأما عن نفسى فانى ذاهب فى الحال للوقوف بجوار الملك وأعلموا تماماً بأننى سوف أحث كل واحد منكم قادراً على حمل السلاح أن يأتى معى لسد حاجة الملك من المقاتلين» (٢) .

لقد كان لهذا النداء صدى كبيراً لدى كثير من المسيحيين الموجودين فى القدس فسرعان ما تقدم أكثر من مائة وخمسين مقاتلا أبدوا رغبتهم فى الانضمام إلى المعسكر الصليبى بالرملة لمناصرة زملائهم هناك . وفى صباح

---

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 183;Anonymous, op. cit. Loc, cit.; Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ., III, p. 450.

(٢) راجع نفس هذه الجملة فى كتاب فولشيه أوف شارتز :
Flucher of Chartres, op. cit., p. 184.

اليوم التالى ذهب برفقة هؤلاء المتطوعين كثير من القساوسة وعلى رأسهم أفريمار بطريق بيت المقدس حاملا الصليب المقدس (١) .

ويعطينا المؤرخ المجهول صاحب «تاريخ القدس» صورة حقيقية لهؤلاء الناس طوال مسيرهم من القدس حتى الرملة . فكانوا حفاة الأقدام يكون بصفة مستمرة ويطلبون المساعدة من الله . وعند وصولهم استقبلهم الملك بفرح وسرور كبيرين . وارتفعت الروح المعنوية لدى المقاتلين الفرنج . واتجهوا جميعاً إلى كنيسة القديس جورج ، وهى على مقربة من هذا المكان ، وأدوا شعائر الصلاة وقدموا الشكر والدعاء لله . ثم أمر الملك بعد ذلك بالنفخ فى الأبواق معلناً بدء المعركة (٢) .

أما بالنسبة للذين تبقوا فى القدس ، فقد أخذوا يوزعون الصدقات على الفقراء ويزورون الكنائس من أول النهار حتى منتصفه ، وكانوا ينشدون وهم يبكون . كما تطوع المسنون من الرجال بالصوم حتى التاسعة من صباح اليوم التالى ارضاء لوجه الله (٣) .

وأيا كان الأمر ، فقد التحم الطرفان يوم الأحد ٢٧ أغسطس ١١٠٥ م ١٤ ذى الحجة عام ٤٩٨ هـ. وكانت المعركة عنيفة وشرسة وغير متكافئة فى العدد فكان الجيش الصليبى لا يتجاوز خمسمائة فارس والفين من المشاة ، بينما كان عدد قوات المسلمين يفوق العشرة آلاف مقاتل بعد التعزيزات الجديدة التى وصلته (٤) .

وكان الملك اللاتينى فى أرض المعركة يشجع جنوده ويحثهم على ضرورة

---

(١) Ibid, Albert d'Aix, op. cit., p. 622; Anonymous op. cit. p. 540; cf. also : Grousset, op. cit.t,I p. 244.

Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV p. 560.

(٢) Flucher of Chrrres, op. cit., p. 185

(٣) Flucher of Charters, op.cit., Loc. cit; Anonymous, op. cit, p. 566

الصمود والتفانى فى القتال من أجل نصرة المسيحية . وكان قد خصص له ما يقرب من مائة وستين فارساً لحمايته ضد أى مكروه قد يصيبه . ورغم كثرة القوات المصرية ، فلم يفكر أى من هؤلاء الفرسان فى ترك الملك وكان الجيش الصليبى منظما يتكون من خمس فرق على رأس كل فرقة حامل الأبواق والرايات (١) . وكانوا يحاربوا بشجاعة وحماسة شديدة ، حيث كانوا يرددون وفقاً لقول البرت دكس «المسيح المنتصر .. المسيح الحاكم .. المسيح السيد» (٢) . وكانت المعركة تتسم بكثرة استخدام السهام والأقواس ، وشدة ضربات السيوف ، خاصة من جانب الدماشقة الذين اشتهروا بالسرعة الفائقة والمهارة التامة فى تصويب أهدافهم بالسهام . فتمكنوا من محاصرة احدى الفرق الفرنجية وتوجيه ضربات سهامهم . اليها فأثار هذا المنظر ثائرة الملك الصليبى ، وأخذ علمه الأبيض من أيدى احد فرسانه ، واقتحم الصفوف ، وأخذ يهاجم هنا وهناك فى نفر من فرسانه حتى تمكن من فك شبكة الحصار حول اتباعه . وفى الحال تشتت شمل الدماشقة ، ولحقتهم الهزيمة ، واضطروا إلى الفرار من ميدان المعركة . ولعل ما دفعهم على هذا فرار كثير من المقاتلين المصريين إلى عسقلان وعلى رأسهم قائدهم سناء الملك الذى تمكن من الهرب مباشرة إلى القاهرة (٣) . ورغم هذا ، فقد صمد كثير من القادة المصريين طوال المعركة ، وعلى رأسهم حاكم عسقلان جمال الملك ولكن لم تطل به الحياة إذ مات شهيداً أثناء المعركة وقطعت رأسه ، وأخذها معه الملك الصليبى وحزن عليه جنده حزناً كبيراً (٤) وانتهت المعركة بانتصار الجيش الصليبى رغم قلة عدده .

---

(١) Albert d'Aix, op. cit. p. 622.

(٢) Flucher of chartres, op. cit., p. 186.

(٣) Ibid, Anonymous, op. cit. Loc. cit.

(٤) Flucher of Chartres, op. cit. Loc. cit; Anonymous, Li Estoire de Jerusalem, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 643; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C — Hocc., V, 180.

راجع أيضاً المقريزى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٥ ، العينى المصدر السابق جـ ٢٠ لوحة ١٤٥

وتم الاستيلاء على ممتلكات الجيش الاسلامى ، وعاد الصليبيون إلى يافا ، ومنها اتجه الملك إلى القدس (١) .

وعلى الرغم من أن المصريين قد أظهروا شجاعة فى القتال الا أنهم خسروا خسائر فادحة فى الأرواح والأموال سواء المتصرف منها فى الاعداد للحملة أو التى دفعت فدية لاطلاق سراح كثير من القادة الأسرى . ولا يعنى هذا ان الفرنج لم يعانوا من وراء ذلك ، وانما كانت خسائرهم هم أيضاً باهظة لم تعوضها لا الفدية التى حصلوا عليها من المسلمين ولا ما أغتنموه من وراء الاستيلاء على معسكر المسلمين (٢) .

أما بالنسبة للسفن المصرية المرابطة أمام مدينة يافا انتظاراً للفرصة المواتية للانقضاض على المدينة وغيرها من المدن البحرية الأخرى الخاضعة للصليبيين فسرعان ما وصلتها انباء هزيمة الجيش الفاطمى ، فدب الذعر فى قلوب من فيها من المقاتلين خاصة بعد أن أمر الملك اللاتينى بالقاء رأس الأمير جمال الملك على ظهر احدى السفن المصرية . وحينذاك انزعج المسلمون عندما علموا بحقيقة ما حدث لأميرهم . فأثروا الانسحاب إلى عسقلان . وصادفتهم فى الطريق رياح شديدة أطاحت بعدد كبير من سفنهم والقيت بها على الشواطىء الصليبية ، فكانت فرصة ذهبية للصليبيين الذين قبضوا على من فيها بينما لاذت السفن الباقية بالفرار إلى عسقلان (٣) .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن المؤرخين اللاتين القدامى الذين سجلوا أحداث معارك الرملة قد تحاملوا بشكل واضح على القوات المصرية والاسلامية

---

(١) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 566; Annalles de Terre Sainte, cf. A.O.L., II, p. 430.

(٢) Flucher of Chartres, op. cit., p. 187; Anonymous, Li Estoire de Jerusalem, cf. R.H.C — Hocc., V. p. 643; cf. also : Runciman, op.cit., II, p. 90; Grousset, op. cit. I, p. 245.

(٣) Anonymous, op. cit., Loc. cit Flucher of Chartres, op. cit, p. 188.

وحاولوا أن ينالوا من حماسهم وشجاعتهم وايمانهم فى حروبها ضد الصليبيين فى الوقت الذى يمتدح فيه هؤلاء المؤرخين شجاعة اللاتين وحماسهم وايمانهم الشديد من أجل تمجيد المسيحية ونصرتها ، لا نجد فى كتبهم وتأليفهم الا شذرات مبعثرة تتحدث عن موقف المسلمين الحقيقى أبان تلك المعارك . فلاشك أن هؤلاء المؤرخين لم يعطوا المسلمين حقهم فى اظهار سماتهم الطيبة فى هذه الناحية ، والتى لا تقل بأى حال من الأحوال عما كان يتصف به الفرنج . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تحيز هؤلاء المؤرخين إلى بنى جلدتهم

حقيقة أن المؤرخين المسلمين أمثال ابن القلانسى وابن الأثير وغيرهما لم يبرزوا أيضاً تلك الصفات فى مؤلفاتهم . ولكن هذا لا يعنى أنهم يتفقون مع ما جاء فى كتابات المؤرخين الغربيين . وانما يرجع فى المرتبة الأولى إلى اهتمامهم بتدوين أهم الأحداث التى تمت فى الأعوام التى يؤرخون لها على طريقة السرد الحولى ، بغض النظر عن تفاصيلها ودقائقها ، وخاصة إذا كانت تتعلق بوصف المعارك الحربية بهذه الصورة الدقيقة التى اعتاد عليها المؤرخون الغربيون .

هكذا تكون قد أنتهت الحملة الثالثة والأخيرة من جولات العمليات الحربية التى دارت رحاها فى منطقة مدينة الرملة وانتهت معها تلك المحاولة الضخمة التى قام بها الفاطميون لاستعادة فلسطين من قبضة الفرنج .

فكانت هذه الحملات الثلاث تمثل حلقة هامة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب والذى يمتد منذ عهد اليونان والرومان القدماء حتى وقتنا هذا . وغير خاف ، ان تلك الحملات قامت فى وقت كان فيه العالم الاسلامى يعانى من التمزق والانقسام والضعف الشديد ، وفى وقت كان فيه مركز الثقل يميل بقوة لصالح الغرب الأوروبى . ولو كان قد قدر للقوى العربية الاتحاد ونسيان ما بينها من خلافات ، وغلبت الصالح العربى العام على المصالح الشخصية لما أتاحت للدخلاء فرصة تحقيق أى انتصار أو تثبيت دعائم دولتهم ولاستطاعت أن تحفظ فلسطين من عبثهم .

ومع ذلك تعتبر حملات الرملة الثلاث خطوة هامة نحو ظهور حركة اليقظة العربية التى تمت خلال القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) وأخذت تسرى كالتيار فى المنطقة وأثمرت ظهور شخصيات اسلامية لامعة كان لها دور لا ينسى فى بذر بذور الوحدة العربية الاسلامية مثل عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود ، وصلاح الدين الايوبى مؤسس الأسرة الايوبية بمصر والذى نجح بعد جهاد كبير فى تكوين وحدة اسلامية عربية من الفرات إلى النيل وتطويق ممتلكات اللاتين وطردهم من بيت المقدس بعد هزيمتهم شر هزيمة فى موقعة حطين عام ١١٨٧ م/ ٥٨٣ هـ . واعتدل بعد ذلك ميزان القوى فى المنطقة لصالح العرب ، إلى أن انتهى الأمر بطرد الفرنج نهائياً من أرض الفروبة عام ١٢٩١ م/ ٦٩٠ هـ أيام السلطان المملوكى الأشرف خليل .

بيـان بالمختصرات

الواردة ذكرها فى حواشى البحث

R.H.C. — H.occ —	Recueil des Historiens des Croisades — Historiens occidentaux.
R.H.C. — Doc. Arm-	Recueil des Historiens des Croisades — Documents Armeniens.
J. A.	Journal Asiatique.
A.O.L	Les Archives de l'Orient Latin.

قائمة المصادر والمراجع الاجنبية

أولا : المصادر : ـ

Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed. R.H.C. — H, occ., t. IV, Paris, 1879, (pp. 265 — 713).

Annales de Terre Sainte (1095 — 1291) , Publiees Par R. Rohericht et G. Raynoud in. A.O.L., t. II, (pp. 427 — 467).

Anonymous, Li Estoire de Jerusalem et d'Antiochie, ed. R.H.C. — H. occ., t. V, Paris, 1889, (pp. 623 — 642).

Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem Ed. R.H.C. —H. occ., t. III, Paris, 1866, (pp. 490 — 543).

Anonymous, Gesta Francorum et Aliorum Jerosolimitanorum.

وقد رجعنا إلى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم وأعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة دكتور حسن حبشى . القاهرة ١٩٥٨ .

Anonymous, Historia Hierosolimitana Ed. R.H.C. — H. occ, t. IV, Paris, 1879, (pp. 549 — 585).

Anonymous, Historia Nicaenvel antiochenna. Ed. R.H.C. H. occ., t. V, Paris, 1889, (pp. 140 — 185).

Baldrici, Histoira Jerosolimitana. Ed. R.H.C. — H. occ., t. IV, Paris, 1879, (pp. 4 — 111).

Ekkehardi, Abatis Urou Giensis Hierosolymita, Ed. R.H.C. — H. occ., t.V, Paris, 1880, (pp. 1 — 40).

Fabri, F., The Wandrings of Brother Felix fabri (1480 — 1483 A,D), translated by A. Stewart, 2 vols, London, 1893. cf. Palestine pilgrim's Text Society, IX,

Flucher of Chartres, Ahistory of the expedition to Jerusalem (1095 — 1127), translated by frances Rita Ryan, U.S.A. 1969.

Gotfridi, Anonymi Rhenani Historia et Gestaducis Gotfridi, Ed. R.H.C. — H. occ., t. V, Paris, 1880,)pp. 439 — 525).

Guillaum of Tyr, A History of Deeds Done Beyond The Sea, 2 Vols, translated by E.A. Babock, A.C. Kery, New York, 1943.

Mattew d'Edesse, Extraits de la chronique de Mattew d'Edesse. Ed. R.H.C. — Doc. Arm, I, Paris 1869 (pp. 1 — 150).

Sonuto, Marino, Secrets for the Crusaders to help them to recovoer the holy Land, cf. Palestine pilgrim's Text Society, t.XIV, London 1896 (pp 1— 73).

ثانيا : المراجع :

Alphonse, Travels in the East, Edinbourg, 1839.

Belloc, The Crusades, London, 1937.

Benvenisti, The Crusades in the Holy Land,

Besant, The History of Jerusalem London, 1833.

Campbel, The Crusades, London, 1935.

Chalandon, Histoire de la premiere croisade, Paris, 1925.

Conder, The Latin King-dom of Jerusalem, London, 1897.

Defremery, Nouvelles Recherches Sur les Ismaéliens ou Bathiniens de Syrie, cf. J. A.5e, t. V, Paris, 1855, (pp. 5 — 76).

Franklin, Palestine depicted and described, London, 1911.

Grousset, Histoire des Croisades, 3 vols, Paris, 1948.

Lamb, The Crusedes, London, 2031 .

Morgoliouth, D., S., Cairo, Jerusalem and Damascus, London, 1907.

Muller, Castles cf. the Crusades, London, 1966.

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols, London, 1971.

Setton, K.M., (Ed.) A History of the Crusades, 2vols, Philadelphia, 1958.

Smith, Jerusalem. The Topographie and History, London, 1909.

Stanly, P., Sinai and Palestine, London, 1856.

Stevenson, W.B., The Crusaders into East, London, 1907.

Hand Book for travellers in Syria and Pales tine, 2vols, London, 1888.

المصادر والمخطوطات والمراجع العربية

أولا : المصادر :

ابن الأثير ، (أبو الحسن — أبي الكرم الملقب عز الدين) :

الكامل فى التاريخ — ١٢ ج . القاهرة ١٣٠١ — ١٨٨٢ م .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن) :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — ٩ ج — القاهرة ١٩٤٢ .

ابن الجوزى (سبط) (أبو المظفر شمس الدين يوسف) :

مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان — ج ٨ — حيدر الباد ١٩٥١ .

ابن حوقل (الحسب القاسم) :

صورة الأرض . لندن ١٩٢٨ .

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) :

وفيات الأعيان — ٦ ج — القاهرة ١٩٤٨ — ١٩٤٩

ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن أسد بن على)
ذيل تاريخ دمشق – بيروت ١٩٠٨
أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين)
تقويم البلدان – باريس ١٨٩٠ .
الاربلى (عبد الرحمن سبط بن ابراهيم)
خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك – تحقيق مكى السيد جاسم ، بغداد ١٩٦٤
الاصطخرى (أبو أسحق ابراهيم بن محمد)
المسالك والممالك – ليدن – ١٩٢٧)
الأنصارى الدمشقى (شمس الدين ابن عبد الله)
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر – ليبزج ١٩٢٣ .
العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – ٨ ج بيروت (بدون تاريخ)
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)
اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء
تحقيق د . محمد حامى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١ ج ٢
بنيامين التطيلى (ابن يونه النيارى الاندلسى)
رحلة بنيامين – ترجمة عن الأصل العبرى عزرا حداد ١٩٤٥
ناصر خسرو علوى (أبو معين الدين)
سفرنامه – ترجمة د . يحيى الخشاب القاهرة ١٩٤٥ .
ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين)
معجم البلدان – ٦ . ح ، ليبزج ١٨٦٦ – ١٨٧٠ .
مؤرخ مجهول : مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع
٦ ج قام بنشره ت . ج جوينبل – طبعة بريل ١٨٦٤

(ثانياً) المخطوطات :

ابن ابيك (أبو بكر بن عبد الله)
كنز الدرر وجامع الغرر — ٩ ج — دار الكتب المصرية «تصوير شمسي»

الادريسي (الشريف محمد عبد العزيز)
نزهة المشتاق في ذكر الامصار والأقطار والجزر والمداين والآفاق ، مكتبة البلدية «نسخة خطية»

العيني (بدر الدين أبو محمد أحمد بن موسى)
عقد الجمان في تاريخ أهل زمان — دار الكتب المصرية ، تصوير شمسي .

النويري الكندي (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)
نهاية الأرب في فنون الأدب — ٥٥ مجلد — دار الكتب المصرية «تصوير شمسي» .

المراجع :

جمال الدين الشيال (الدكتور)
تاريخ مصر الاسلامية — ٢ ج — القاهرة ١٩٦٧

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور)
العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية ١٩٦٣ .

خليل خوري : خرابات سورية — بيروت ١٨٩٠ .

سعيد عاشور (الدكتور)
الحركة الصليبية — ٢ ج — القاهرة ١٩٦٣ .

محمد محمد الشيخ (الدكتور)
الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها — اسكندرية سنة ١٩٧٠ .